

وهو الذي يتعرض للتعرية الابتلاء ومحنة النواية
الفرقان 29 ، ق 16 ، الحشر 16 ، الإنسان 2 ،
٤ ، المجر 15 .

ويزدعيه الغرور فيطغى ويستكبر ، ويضلله وهم
الاستفناه عن خالقه (الملق ٦) وما أكثر ما يذكر
القرآن الإنسان بضمته وهو انه كبحا لجام غروره
يُبلا يتجاوز قدره فيطغى ! وهو مظنة ان يتعادى به
الطفيان والغروف الى حد الكفر بخالقه والوقوف منه
سبحانه موقف خصيم مبين (النحل ٤ ، مريم ٦٧ :
الأنططار ٦ ، نصت ٤٩ ، الزخرف ١٥ ، هيس ١٧ ،
المعاديات ٦) .

*

النعمة والنعيم :

وكذلك يلتقي لفظا « النعمة والنعيم » في الدلالة
العامة لمادتها الواحدة المشتركة ، ثم ينفرد كل منها
في البيان القرآني بملحوظ خاص يميزه عن الآخر تلا
بتراوغان .

والمعاجم اللغوية لا تكاد تفرق بين الصيغتين ،
والمسرون يؤولون النعيم بكل ما تحتمله الدلالة
المجمبة للمادة .

ونستترىء الصيغتين في القرآن كله ، من راء
يفرق بينهما ترقية واصحة :

كل نعمة في القرآن إنما هي لنعم الدنيا على
اختلاف أنوامها . يطرد ذلك ولا يتخلق في مواضع
استعمالها ، مفردا وجما ، في القرآن ومددها ثلاثة
وخمسون موضعا .

اما صيغة النعيم فتختص بنعيم الآخرة . يطرد
ذلك ايضا ولا يتخلق في مواضع استعمال القرآن لها
ومددها ستة عشر موضعا .

منها خمسة عشر موضعا لا يحتمل صريحة
بيانها اي تأويل :

التوبية 29 :

« وجنات لهم فيها نعيم متيم » .

لكنها لا يتراوغان ، بل ينفرد لمنظوظ الإنسان
بملحوظ خاص من الدلالة يميزه عن الآخر .

منظوظ الإنسان يأتي في القرآن دائمًا مع الجن على
وجه التقابل يطرد ذلك في كل الآيات التي ورد فيها
المنظوظ قسيما للجن ، ومددها ثمانى عشرة آية .

وملحوظ الانسية فيه ، بما تعنى من تقييف
التوحش ، هو المهموم سراحة من مقابلته بالجن في
دلائلها اصلا على الخفاء الذي هو من ظواهر
التوحش .

وبهذه الانسية يتميز جنسنا عن اجناس اخرى
خالية مجهولة غير مألوحة لنا ، ولا هي تخضع لنوايس
حياتها .

واما الإنسان وليس مناط انسانيته فيما نستترى
من آيات البيان المعجز ، انه انس محسب ، وانما
الانسانية فيه ارتقاء الى الدرجة التي تؤهله لاحتياط
تبعات التكليف وامانة الإنسان ، وما يلابس ذلك من
تعرض للابتلاء بالخير والشر (١) .

وقد ورد لمنظوظ « الإنسان » في القرآن الكريم :
في خمسة وستين موضعًا تتدبر سياقاتها جميعا
متهدينا الى الدلالة المميزة للانسانية .

هو في جنسه العام انس :

« خلق الإنسان من ملصال كالنخار . وخلق
الجان من مارج من نار » آية ١٤ سورة الرحمن .

« ولقد خلقنا الإنسان من ملصال من حما
مسنون . والجان خلقناه من قبل من نار السوم » .
آية ٢٤ سورة الحجر .

لنته مع انسيته يختص بالتراث والعلم (الملق)
والبيان (الرحمن) والكسب والتکليف (الإنسان ،
النجم ٣٩ ، القيامة ١٤ ، الاسراء ١٧) . والجدل
(الكهف ٥٤) .

ويحتمل الوصية (لقمان ١٤ ، العنكبوت ٨) .

وهموم المكافدة واتحاح العقبة (البلد ٤) .

ويحمل الأمانة التي أبى السموات والأرض
والجبال أن يحملنها وأسلقن منها (الأحزاب ٧٢) .

(١) انظر تفصيل ذلك الاستقراء في الجزء الثاني من كتابي (التفسير البياني) .

الطور 17 :

« ان المتقين في جنات النعيم » .

الواقعة 89 :

« فاما ان كان من المقربين . نروح وريحان
وجنة نعيم » .

المعارج 38 :

« ايطع كل امرىء منهم ان يدخل جنة
نعيم » .

المطفئون 22 :

« ان الابرار لفي نعيم . على الارائك ينظرون .
تعرف في وجوههم نصرة النعيم » .

الاشجان 20 :

« وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا » .

« واذا رأيت ثم رأيت نعيمًا وملكاً كبيراً » .

المائدة 65 :

« ولا دخلناهم جنات النعيم » .

يونس 9 :

« تجري من تحتهم الانهار في جنات النعيم » .

الحج 56 :

« الملك يومئذ الله ، لما ذيئن آمنوا وعملوا
الصالحات في جنات النعيم » معها آياتا :
الصافات 43 ، الواقعة 12 .

للممان 8 :

« ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم
جنات النعيم » .

القلم 34 :

« ان للمتقين عند ربهم جنات النعيم » .

الشمراء 85 :

« واجعلني من ورقة جنة النعيم » .

وبقى آية التكاثر :

(1) أوضحت ذلك بمزيد تفصيل في تفسير سورة التكاثر بالجزء الأول من (التفسير البياني للقرآن الكريم) .

الرخرف 28 :

« قال يالبيت بيسي وبينك بعد المشرقيين »

الأنبياء 109 :

« وان ادرى الرب ام بعيد ما تومدون »

الفرقان 12 :

« ذا رانهم من مكان بعيد سمعوا لها تفيظا وزفيرها »

النحل 22 :

« فمكث غير بعيد فقال احطت بما لم تحط به

وجئتك من سبا بنبا يقين »

سما 52 و 53 :

واني لهم الشناوش من مكان بعيد ، وقد كفروا

به من قبل ويقدرون بالغيب من مكان بعيد »

فصلت 44 :

« اولئك ينادون من مكان بعيد »

ق 32 :

« واذللت الجنة للمتقين في غير بعيد »

آل عمران 30 :

« تود لو ان بينها وبينه امدا بعيدا »

المارج 6 :

« انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا »

الأنبياء 101 :

« اولئك منها بعدهون »

مسود 83 :

« وما هي من الطالعين بعيد »

مسود 95 :

« الا بمدا لمدين كما بعده تعود »

مسود 14 :

« وقبل بعده للقوم الطالعين »

معها هود 60 ، 68 المؤمنون 41 ، 44 .

وابعد في المعنويات مثل شناق بعيد (البقرة 176)

الحج 53 ، فصلت 52) وضلالي بعيد (ابراهيم 3 ، 18

النساء 6 ، 126 ، 136 ، 167 ، العج 12 ، الشورى

18 ، سبا 8 ، ق 27 ، الشورى 18) .

ياني دائمًا في مقابل القرب .

على حين يخلص الناي للمعنوي المحس ، في

الصد والافتراض تقيض الاقبال .

خلف ، والسم :

يقال بترادفهما كما نص على ذلك صاحب
القاموس . وقد ثانى حلف في شواهد من الشعر
الجاهلي بمعنى اقسم ، في مثل قول النابية :

« حلفت فام اترك لنفسك ديبة »

والاعتنى :

« حلفت له بالراتمات الى منى »

وشاس بن مبده :

« حلفت بما فم العجيج الى منى »

لكن التتابع الاستقرائي للمادتين في القرآن
الكريم يمنع تردادهما :

جاءات مادة « حلف » في ثلاثة مشر موظما ،
كلها بغير استثناء في الحث باليمين .

والغالب أن يأتي الفعل مستدلا إلى المنافقين
كآيات التوبة :

« وسيحللون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ،
يملكون أنفسهم والله يعلم انهم لكاذبون » (42)

« ويحللون بالله انهم لنكم وما هم منكم » (56)

« يحللون بالله ليرضوكم والله ورسوله احق
ان يرضوه ان كانوا مؤمنين » (62)

« يعنون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر
وكفروا بعد اسلامهم » (74)

« يعنون لكم لترضوا فان ترضوا عنهم فان الله
لا يرضى عن القوم . الفاسقين » (96)

« وليحللن ان اردنا الا الحسنى ، والله يشهد
بانهم لكاذبون » (107)

ومعها في المنافقين كذلك آيات :

النساء 62 ، المجادلة 14 ، 18 .

وابسة القلم :

« وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة » البقرة
35 والامراء 19 .

« فقلنا يا آدم ان هذا مدد لك ولزوجك »
طسه 117 .

على حين يستعمل « امرأة العزيز ، وامرأة نوح ،
وامرأة لوط ، وامرأة فرعون .

وقد يبدو من البسيط أن يقوم أحد اللغظين مقام
الآخر ، فنفترض زوج آدم بامرأة آدم ، وامرأة فرعون
بزوج فرعون .
وذلك ما يإيه البيان المعجز .

وهو الذي يعطينا سر الدلالة في الزوجية مناط
العلاقة بين آدم وزوجه في قصة أول زوجين من
البشر . ولم تكن زوج آدم نمطاً من النساء أو امرأة
من آخريات ، بل كانت وحدها الزوج ، وكانت الزوجة
ولا شيء غيرها ، مناط علاقتها بأدّم وسر وجودها .

وليس الامر كذلك في امرأة العزيز وامرأة نوح
وامرأة لوط وامرأة فرعون ، وسيأتي الحديث منها من
حيث هن أنهن من النساء ، وليس من العلاقة الزوجية
بينهن وبين أزواجهن . والعبرة في فصوصهن أن كل
واحدة منها مضرب المثل :

امرأة العزيز تراود فتاه من نفسه ؟
امرأة نبي وتخونه ؟
امرأة طافية متجرج كافر ، تؤمن بالله .

ونسترى استعمال القرآن للنفظ زوج وأزواج
فنجد هذا الملاحظ في كون العلاقة الزوجية هي التي
يوجه إليها السياق :

آيات (النساء) في النفس الواحدة خلق منها
زوجها (الامراء 189 ، الزمر 6 ، الروم 21 ، النحل
72) وفي الزوجين خلقهما الله من نفس واحدة ، او
من ذكر واثني : (النساء 1 ، الاعراف 188 ، الزمر 6 ،
النحل 72 ، الروم 21 الشورى 11) ومعها : النساء 8 ،
الشعراء 166 ، والذاريات 49 ، التجم 45 ، القيامة
19 ، فاطر 11 .

وفي ذلك نوع جمل فيها من كل ذوجين الثنين :
المؤمنون 27 ، هود 40 .

. وفيما شرع الله من أحكام الزوجية ، وما نزل
في أزواج النبي صلى الله عليه وسلم من توجيهات ،

« ولا تطبع كل حلف مهم ، هماز مشاء بنيم .
مناع للخير معند أئيم »
وجاء الفعل مرة واحدة منددا إلى الدين آمنوا ،
فوجب عليهم كفاره الحث باليمين :
« ذلك كفارة إيمانكم اذا حلفتم » المائدة 89 .

* * *

اما القسم فيغلب استعماله في الإيمان الصادقة .
وجاء موصنا بالظلمة في آية :
« وانه لقسم لو تعلمون عظيم »

وجاء الفعل في الشهادة ومثلها ، حيث لا يحمل
الحث باليمين . كالشهادة حين الوصبة (المائدة
106 ، 107) .

وحيث يسند القسم في القرآن إلى مجرمي أو
الكافر ، فانهم يقسمون عن الفتناع بصدق ما يقسمون
عليهم .

السروم 55 :
« و يوم تقوم الساعة يقسم الجرمون ما ليشوا غير
ساعة »

الانعام 109 :
« واقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءتهم آية
ليؤمنن بها »
ومعها آيات :

الاعراف 49 ، ابراهيم 44 ، المائدة 53 ، النحل
38 ، النور 53 ، فاطر 42 .

واما هذا البيان القرآني ، لا يهون أبدا ان نفتر
القسم بالحلف ، وصنيع القرآن يلفت الى فرق دقيق
بين هذين اللغظين المقول بترادفهما .

فإن لم نقل ان القسم لليمين الصادقة ، والحلف
لليمين الكاذبة ، على اطلاقهما . فلا أقل من ان يكون
بين دلالتهما الفرق بين العام والخاص : فيكون القسم
لمعاق اليمين بعامة . ويختص الحلف بالعنث في
اليمين ، على ما اطرد استعماله في البيان الأهل .

* * *

زوج ، وامرأة :

وترى البيان القرآني يستعمل لفظ « زوج »
حيثما تحدث عن آدم وزوجه :

مثل آيات البقرة 230 ، آل عمران 90 النساء 11 ، 19 الانعام 139 ، الحجر 88 ، النور 6 ، 30 ، طه 131 ، التحريم 1 : 5 ، المجادلة 1 ، المتحدة 11 ، الاحزاب 28 ، 37 ، 50 : 59 .

* * *

واكتفى بما قدمت من شواهد وامثلة تزيد ما ذهب إليه المحققون من أهل اللغة في انكار الترداد إلا أن يجيء في لفتيين : « فاما ان يجيء في لغة واحدة فمحال ان يختلف اللفظان والمعنى واحد كما ظن غير المحققيين من التحويين واللقويين » ، وإنما سمعوا العرب تتكلم بذلك على طباعها وما في ثقافتها من معانيها المختلفة، ولم ما جرت به مادتها وتعارفها، ولم يعرف السامعون تلك الملل والفرق لظنوا ما ظنوه من ذلك وتأولوا على العرب ما لا يجوز في الحكم » (1)

وقد ينبغي لي أن أترى هنا بتصوري من لمح سر الدلالة لبعض المفاظ تبدو متراوحة ، فليس لي أن أقر بالعجز وإنما أ Hustle بكلمة ابن الأهرابي :

« كل حرفين أو فنتهما العرب على معنى واحد ، في كل منها معنى ليس في صاحبه ، ربما مررتناه فأخبرنا به ، وربما غمض علينا فلم نلزم العرب جهاته » (2) .

الاساليب وسر التعبير

قد تكون عرلتنا البلادة العربية علماً وتلقناها صناعة ومنطقاً .

غير إننا ما زال في أشد الحاجة إلى أن نجتليها ذوقاً أصيلاً وحسناً مرهقاً في آيات المصاحة العلية والبيان العجز .

الاستفهام عن الفاعل :

وأحاول فيما يبقى من المجال المحدود للبحث ، أن أقدم بعض ما هدى إليه البيان القرآني في أساليب غاب من كثير منها سر التعبير فيها والبيان .

(1) أبو هلال العسكري : الفروق اللغوية 12 .

(2) أبو هلال العسكري : الفروق اللغوية 65 .

من اللواهر الاسلوبية اللافتة في البيان المعجز ظاهرة الاستفهام عن الفاعل التي توزعت في دراساتنا وكتبنا بين أبواب شئ متباعدة ، لا تعطى سر هذا الاستفهام ، ثانت تقرأ في الصرف كيفية بناء الفعل للمجهول وصيغ المطاومة . وفي النحو أحکام نائب الفاعل . أما لماذا حذف الفاعل فذلك موضوع آخر ندرسه في علم آخر هو علم المعاني التي اقتضت من الامر اب فعاد هذا الامر صنعة ، وهو في الاصل من صميم المعنى . كما ندرس في علم البيان استناد الفعل الى غير فاعله على سبيل المجاز ، دون أن نحاول جمع هذا الشتات المنتشر للظاهرة الاسلوبية لاجتلاه سرعاً الذي من أجله تستفهي العربية من الفاعل فتسنده الى غير فاعله : بالبناء للمجهول ، او بالمطاومة ، او بالاستناد المجازي .

- - -

وقد لفتني اطراد ظاهرة الاستفهام عن الفاعل في البيان القرآني في موقف واحد هو موقف القيامة :

اما بالبناء للمجهول في مثل آيات :

« فاذَا نَفَخْتُ فِي الصُّورِ نَفْخَةً وَاحِدَةً »
 « وَحَمَلَتِ الْأَرْضُ وَالْجَبَالُ فَدَكَتَا دَكَةً وَاحِدَةً »
 « اذَا رَجَتِ الْأَرْضُ رَجًا . وَإِذَا الْجَبَالُ بَسًا »
 « يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْنُونُ الْفَوَاجَا »
 « وَفَتَحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا . وَسَيَرَتِ الْجَبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا »
 « فَإِذَا النَّجُومُ ظَهَستَ . وَإِذَا السَّمَاءُ فَرَجَتَ . وَإِذَا الْجَبَالُ نَسْطَتَ »
 « اذَا الشَّمْسُ كَوَرَتَ . وَإِذَا النَّجُومُ انْكَدَرَتَ . وَإِذَا الْجَبَالُ سَيَرَتَ . وَإِذَا الشَّارِقَ مَطَلسَتَ . وَإِذَا الْوَحْشُ حَشَرَتَ . وَإِذَا الْبَحَارُ سَجَرَتَ . وَإِذَا النَّفَوسُ نَوَجَتَ . وَإِذَا الْمَوْمُودَةُ سَلَّتَ . بَأْيَ ذَنْبٍ قَتَلَتَ . وَإِذَا الصَّفَحُ نَشَرَتَ . وَإِذَا السَّمَاءُ كَشَطَتَ . وَإِذَا الْجَهَنَّمُ سَعَرَتَ . وَإِذَا الْعَنَةُ أَلْقَتَ . هَلَمْتَ نَفْسَ مَا أَحْسَرَتَ »
 « كَلَّا اذَا دَكَتِ الْأَرْضُ دَكًا دَكًا »

« وَجِيءُ بِوْمَئِدَةِ جَهَنَّمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَإِنَّ
لَهُ الدَّكْرَ »

« أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بَعْثَرَ مَا فِي الْقُبُورِ . وَحَصَلَ مَا فِي
الْمَدُورِ »

وَمَعَهَا آيَاتُ النَّفخِ فِي الصُّورِ ، وَكُلُّهَا بِلَا إِسْتِنَاءٍ
مُبَنِّيَّ لِلْمَجْمُولِ .

وَأَمَّا أَنْ يَسْتَغْفِرُ مِنْ ذِكْرِ الْفَاعِلِ ، بِاسْنَادِ
الْحَدِيثِ إِلَى غَيْرِ فَاعِلِهِ مَطَاوِعَةً أَوْ مَجَازًا كَمَا فِي آيَاتٍ :

« الْقَرِبَةُ السَّاعَةُ وَانْشِقُ الْقَمَرُ »

« فَإِذَا اشْقَتَ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرَدَةً كَالْدَهَانِ »

« إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ . وَإِذَا الْكَوَاكِبُ اتَّسَرَتْ »

« إِذَا السَّمَاءُ اشْقَتَ . وَادَّفَتْ لَرِبِّهَا وَحْتَ »

« وَإِذَا الْأَرْضُ مَدَتْ . وَالْقَلْتَ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ »

« يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سَرَاعًا »

« يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا . وَتَسْيِيرُ الْجَبَالَ سِيرًا »

« فَارْتَقَبِ يَوْمَ قَاتَيَ السَّمَاءَ بِدُخَانٍ مَبِينٍ »

« إِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ . وَخَسَفَ الْقَمَرُ . وَجَمِيعُ
الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ »

« وَاحْرَجَتِ الْأَرْضُ اِنْقَالِهَا . وَقَالَ إِنْسَانٌ مَالِهَا .
بِوْمَئِدَةِ تَعْدِيْتِ أَخْبَارِهَا »

وَالْبَلَاغِيُّونَ يَقُولُونَ فِي حَدْفِ الْفَاعِلِ ، أَنَّهُ بِحَدْفِ
الْخُوفِ مِنْهُ أَوْ عَلَيْهِ ، وَلِلْعِلْمِ أَوْ الْجَهْلِ بِهِ .

وَقَدْ مَضَى الْمُفْسِرُونَ عَلَى تَقْدِيرِ فَاعِلٍ مَحْدُوفٍ
لِأَحَدَاثِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، هُوَ اللَّهُ سَبَحَانَهُ ، أَوْ مَلَكٌ مِنْ
مَلَائِكَتِهِ؛ مَعْ وَضُوحِ الْمَدِ في الْبَيَانِ الْقَرآنِيِّ إِلَى صَرْفِ
النَّظَرِ مِنْ الْفَاعِلِ وَالْإِسْتِفَنَاءِ مِنْ ذِكْرِهِ . وَأَكْثَرُ مَا قَالُوهُ
فِي تَاوِيلِ ذَلِكَ ، أَنَّ الْفَاعِلَ مَحْدُوفٌ لِلْمَلْمِبَةِ . وَفِي الْقَرآنِ
آيَاتٌ لَا تَحْصَى لَمْ يَعْلَمْ الْفَاعِلَ فِيهَا مَعْ يَقِينِ الْعِلْمِ
بِهِ . فَمَا سِرْ ظَاهِرَةِ الْإِسْتِفَنَاءِ عَنِهِ فِي أَحَدَاثِ الْقِيَامَةِ؟

بِهَدِيْنَا تَدْبِيرُ السِّيَاقِ إِلَى :

أَنَّ اسْلَابَ الْبَنَاءِ لِلْمَجْمُولِ وَالْمَطَاوِعَةِ وَالْإِسْنَادِ
الْمَجَازِيِّ إِلَى غَيْرِ الْفَاعِلِ ، تَلْتَقِيُّ جَمِيعًا فِي الْإِسْتِفَنَاءِ
عَنْ ذِكْرِ الْفَاعِلِ .

أَنَّ اطْرَادَ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ فِي مَوْقِفِ الْبَصَرِ
وَالْقِيَامَةِ ، يَبْنِيَ إِلَى اسْرَارِ بِيَانِيَّةِ وَرَاءِ ضَوَابِطِ الْمَنْعَةِ
الْأَعْرَابِيَّةِ وَالْأَحْكَامِ الْبَلَاغِيَّةِ الَّتِي تَجْمَدُتْ فِي اِجْرَاءَاتِ
الْمَنْطَقِ الْبَلَاغِيِّ .

فِي بَنَاءِ الْفَاعِلِ لِلْمَجْمُولِ ، فِيهِ تَرْكِيزٌ الْإِهْتِمَامِ عَلَى
الْحَدِيثِ بِصَرْفِ النَّظَرِ عَنْ مَحْدُوثِهِ .

وَالْمَطَاوِعَةُ ، فِيهَا بَيَانُ الْطَّوَاعِيَّةِ الَّتِي يَتَمْ بِهَا
الْحَدِيثُ تَلَقَّائِيَا أَوْ عَلَى وَجْهِ التَّسْخِيرِ ، وَكَانَهُ لَيْسَ فِي
حَاجَةٍ إِلَى فَاعِلٍ .

وَالْإِسْنَادُ الْمَجَازِيُّ ، يَعْطِي الْمَسْتَدِيَّ الْفَاعِلَيَّةَ
مُؤْكِدَةً مَحْقَقَةً ، تَجْعَلُهُ يَحْلُ محلَّ الْفَاعِلِ الْأَصْلِيِّ وَيَفْنِي
عَنْ ذِكْرِهِ .

— ◆ —

السُّجُوعُ وَرِعَايَةُ الْفَوَاصِلِ :

مِنْ بَدَا عَصْرَ التَّالِيفِ فِي الْدِرَاسَاتِ الْقُرآنِيَّةِ
وَالْبَلَاغِيَّةِ ، فَرَغَتْ فَقْسِيَّةُ الْفَوَاصِلِ نَفْسَهَا عَلَى الْأَجَيَالِ
الْأُولَى مِنْ عُلَمَاءِ الْعُرْبِيَّةِ، وَأَنَّ لَمْ تَسْتَقِلْ بِمَبَاحِثَ مُفَرِّدةٍ،
بَلْ جَاءَتْ مَارِضَةً فِي ثَنَابَيِّ الْمَصَنَّفَاتِ الْقُرآنِيَّةِ الْمُبَكَّرَةِ .

فَابْنُ عَبِيدَةِ مِنْ الْقَرْنِ الثَّانِي لِلْمَهْرَةِ ، يَقْفَنِ فِي
كِتَابِهِ (مَجَازُ الْقُرآنِ) مِنْذَ الْفَاصلَةِ بَيْنَ حِينَ وَآخِرَ ،
إِذَا لَحِظَ فِيهَا عَدُوِّاً مِنْ مَالُوفِ الْاسْتِعْدَالِ الْفُسُويِّ ،
مُوجِّهَا هُمَّهُ إِلَى الْاِحْتِجَاجِ لِهَذَا الْمَدْوُلِ بِإِنَّ «الْمَرْبُّ»
تَفْعَلُ ذَلِكَ فِي كَلَامِهَا « وَهِيَ الْمَبَارَةُ الَّتِي تَلَقَّانَا كَثِيرًا
فِي (مَجَازُ الْقُرآنِ) .

كَذَلِكَ لَمْ يَعْرِضْ «الْفَرَاءُ» وَهُوَ مِنْ لَغْوِ الْقَرْنِ
الثَّانِي - تِسْنَةِ 207هـ - لِسَالَةِ الْفَوَاصِلِ عَرَضاً
مِباشِراً فِي كِتَابِهِ (مَعْنَى الْقُرآنِ) وَلَكِنَّهُ حَدَّدَ رَأِيهِ فِي
مَوْقِفِ الْقُرآنِ مِنْهَا تَحْدِيداً صَرِيقاً فِي تَفْسِيرِهِ الْلَّغْوِيِّ
لِمَعْنَى الْقُرآنِ ، وَتَرْجِيْحِهِ بَيْنَ الْقَرَاءَاتِ . وَعِنْدَهُ أَنَّ
الْقُرآنَ يَرَاهُ الْفَاصلَةَ مَمَّا يَتَحَقَّقُ بِهَا جَمَالُ النَّظَمِ :
فَيَقْدِمُ أَوْ يَؤْخُرُ وَيُؤْثِرُ لِفَظَا عَلَى آخِرٍ فِي مَعْتَشَاهِ ، أَوْ
يَعْدِلُ مِنْ مَيْسِنَةِ الْكَلْمَةِ إِلَى مَيْسِنَةِ أَخْرَى ، رَهَابَةً
لِلْفَاصلَةِ ، أَوْ رَهَابَةِ الْأَيَّاتِ ، كَمَا يَسْمِيُهَا ، كَالْلَّذِي
تَرَاهُ مَثْلَاً فِي تَوْجِيهِهِ لِلْفَوَاصِلِ مِنْ سُورَ الرَّحْمَنِ ،
وَالْفَسْحِيِّ ، وَالْفَجْرِ .

وَعَلَى كُثُرَةِ مَا يَعْرِضُ «الْقَرَاءُ» لِلْفَوَاصِلِ وَبِخَاصَّةِ
فِي السُّورِ الْمُبَكَّرَةِ ، لَمْ يَذْكُرْهَا بِاسْمِ الْفَوَاصِلِ وَإِنَّمَا هِيَ
هَنْدَهُ رَهَابَةِ آيَاتٍ ، وَأَنْ تَبْتَعَ عَلَى مَذْهَبِهِ فِي أَنَّ الْقُرآنَ
يَرْعَاهَا قَصْداً إِلَى رَهَابِيَّةِ الْجَرْسِ الصَّوْتِيِّ وَالْمَشَاكِلِ
الْلَّفْظِيَّةِ . مَعَ تَحَاشِيهِ ذِكْرِ «السُّجُوعِ» .
وَانْكَرَ «ابْنُ قَتْبَيَّةَ» مَدْهَبَ «الْفَرَاءِ» فِي هَذِهِ
الْرَّهَابَةِ الْلَّفْظِيَّةِ لِلْمَقَاطِعِ وَرَهَابَةِ آيَاتِ .

والسجع ميب ، وعلل ذلك بما ذكرناه من أن السجع تبعة المعاني والفوائل تتبع المعاني . وهذا غير سجيع * (3) .

وحرر الموقف فقال إن التكليف كما يعرض في السجع عند تماثيل العروض ، يعرض في الفوائل هذه تناسب العروض ، والتلكلف في كليهما مدحوم مرفوض . أما أن يأتي التمايز والتقارب طوها سهلاً وتبايناً لمعاني ، فهو محمود الحال على الفصاحة وحسن البيان . ولم يرد في القرآن الا ما هو من هذا الفسرب لمثواه في الفصاحة .

ثم قال ... « واظن أن الذي دعا اصحابنا إلى تسمية ما في القرآن فوائل ولم يسموا ما تماثلت حروفه سجعاً ، رفبة في تزويه القرآن من الوصف اللاحق بغيره من الكلام المرادي عن الكهنة وغيرهم . وهذا في التسمية قریب ، فاما الحقيقة لما ذكرناه » (4) .

وكذلك لم ير « ابن الائير » في (المثل السائر) وجهاً للدم السجع على الاطلاق ونفيه عن القرآن جملة . فهناك سجع بایغ ، الفاظه حاویة حادة طنانة زنانة لا فتنة ولا باردة ، والمعنى فيه تابع لللفظ ، وكل فقرة من المجموعتين دالة على معنى غير الذي دلت عليه اختها » (5) .

« وابو هلال العسكري » في فاتحة (اسرار البلافة) يرى من السجع ما هو حسن بلبغ ، اللفظ فيه استدعاي المعنى . ومنده ان مثل هذا السجع حلية في الكلام ، ويتجبه منه الرونق اللغطي الذي هو منه من اسرار الاعجاز » (6) .

« وابن حمزة العلوى » في باب التسجيع من الكتاب المرسوم بالطراز لم يعرض للخلاف بين الاسجاع والفوائل ، ولا ناقش القائلين بالسجع في القرآن والقائلين بتفبيه ؛ لكنه قرر ان التسجيع « من علوم البلافة ، كثير التدوار عظيم الاستعمال في السنة

وحتى القرن الثالث المجري ، كان التخرج وأصحابه من القول بالسجع في القرآن . وكانتا كان الحسن المؤمن يتباهى بالكلمة ، لكثره ما اطلق من قديم على سجع الكهان .

ولكن التقافية ما لبثت ان دخلت معترك الجدل الكلامي بين الفرق الإسلامية ، فارتبطت بالامجاز بالنظم ، وبدأت تستقل بمحاجتها مفردة :

الاشاهرة قرروا نفي السجع عن القرآن ، وأثاروا لفظ الفوائل على السجع ، محاولين ان يفرقوا بينهما ، بأن الفوائل يتبع اللفظ فيها المعنى فيه اللفظ (1) .

ولا يبدو لنا وجه تمييزهم بين السجع والفوائل القرآنية وأصحابها ولا قويا ، فيما نقل منهم « الباقلاني » فهو يقيم الفرق احياناً على ملاحظة شكلية من تفاوت المقاطع بين الفاصلتين طولاً وقصراً ، وهذا منه اخلال بضوابط السجع ومقاييسه .

والمعتزلة نثروا كذلك القول بالسجع في القرآن نفياً باتاً ، مقدرين ان الفوائل بلاغة والسجع عيب . وبسط « الرمانى » هذا المذهب في رسالته في اعجاز القرآن ، محتاجاً للفوائل القرآنية بان المبررة فيها بالمعنى . وان لم يمتنع منه ان يكون للجرس الصوتي والتلاطف الایقاع حظه من التقدير (2) .

ولكن من البلائيين من لم يطمئنوا الى هذه الفرقية بين الفوائل والسجع ، وان اجمعوا على اعجاز البيان القرآني .

منهم « ابن سنان الخفاجي » السدي قال في (سر الفصاحة) :

« وأما الفوائل التي في القرآن ، فإنهم سموها فوائل ولم يسموها أسبجاً . وفرقوا فقالوا ان السجع هو الذي يقصد في نفسه ثم يحمل المعنى عليه . والفوائل هي التي تتبع المعاني ولا تكون مقصودة في نفسها . وقال الرمانى ان الفوائل بلاغة

1) الباقلاني : اعجاز القرآن ، في نفي السجع عن القرآن .

2) ثلاث رسائل في اعجاز القرآن : ص 97 ، ط الدخال .

3) الخفاجي : سر الفصاحة : 164 .

4) الخفاجي : سر الفصاحة : 166 .

5) ابن الائير : المثل السائر ، ص 74 ، 97 - ط البهية بالقاهرة سنة 1312 .

6) اسرار البلافة : 7 .

والسجع ، فكلاهما يعرض له الاستكراه والتکلف فيهبطان عن مستوى البلاغة ، كما قد يائي كلاهما طواعية دون فلق أو استكراه بتوجيه المعنى ، فيفرق الاسلوب بلاغياً وتكتمل له قوة المعنى ورونق اللفظ . وعندهم ان الامر في التفرقة بين الإجماع والفوائل ليس الا كراهة التول بالسجع في القرآن ، بعد ان شاع اطلاقه على سجع الكهان .

وما نزال نجد جفوة تجاه لفظ السجع ، لطول ما ابتدأته الصنعة اللغوية والزخرف البديعي ، في اساليب العصور المتأخرة ، بعد ان اصطنعه الكهان في العصر الجاهلي .

ومن ثم نؤثر أن نمضي على تسمية مقاطع الآيات في النظم القرآني بالفوائل ، وهو ما جرى عليه أكثر المفسرين .

وبعد الذي سقناه من خلافهم فيما بين اللفظ والمعنى نتذمّر الفوائل القرآنية فلا نرى البيان القرآني يتعلق في أي فاصلة منها بمجرد رهابة شكلية للرُّونق اللُّغَطيِّ ، وإنما تأتي فوائله جيئها لمقتضيات معنوية بيتانية مع نسق الإيقاع بهذه الفوائل ، والتلاطف العرس ، على نحو تتقاضر دونه طاقة البلاء .

واختار هنا شواهد من الفوائل التي وهي « الفراء » ومن ذهب مذهبها تحملوها على قصد المشاكلة اللغوية بين رؤوس الآيات بايشار نسق على آخر او العدول من لفظ الى غيره في معناه .

ونختلف معهم ابتداء في التول بلغظين لمعنى واحد . وقد سبق بيان ذلك في الترداد وسر الكلمة .

لم ننظر في هذه الفوائل :

« والضاح والليل اذا سجن . ما ودبك وبك وما قلس »

قال « الفراء » ان القرآن جرى فيها على طرح الكاف من « ثلاثة » - ومن : ناوي نهدي ، فالمعنى - المشاكلة رؤوس الآيات .

وقد « الفخر الرازي » من وجوه حذف الكاف ، رهابة الفاصلة (3) .

البلاء ، ويقع في الكلام المنثور ، وهو في مقابلة التصريح في الكلام المنظوم الموزون في الشعر » (1) واضح من مسلكه في الاستشهاد لكل نوع من أنواع التسجيع بآيات قرآنية ، انه يذهب مع القائلين بوجود السجع في القرآن .

« وابن أبي الأصبع المصري » (585 : 654 هـ) في كتابه (بدیع القرآن لا يجد مستقرًا على رأي في الموضوع ، ففي باب (التلاطف الفاصلة) ينتهي السجع عن فوائل القرآن ، وفي باب (التسجيع) ياتي بشواهد قرآنية على فنون التسجيع (2) .

- - -

وأراني أطلت في عرض أقوال السلف في الفوائل القرآنية والسجع ، توطة لتذير اسود التعمير في هذه الظاهرة الإسلامية من البيان المعجز .

وقد رأينا كيف تباعدت بهم السبل بين الطرفين المتقابلين :

ففي البيئة الكلامية ، اختلفت الفروق الإسلامية بين نفي السجع في القرآن نفيًا باتا على ما نقلنا من كلام الاشاعرة والمترولة .

وبيّن القول بوجوده في النظم القرآني . قال به من الشيعة « يحيى بن حمزة العلوى » وفي البيئة اللغوية والبلاغية ، تباعد الخلاف بين مذهب « الفراء » في أن السجع في القرآن مقصود لذاه ، وإنه ربما عدل عن نسق الى آخر واعتبر لفظا على غيره في معناه ، قصدا الى المشاكلة واتفاق رؤوس الآيات .

وبيّن من انكروا ، كابن سنان الخفاجي وابن الائير ، ان تكون معانى الفوائل القرآنية تامة للالفاظ .

ورأينا من الاقدمين من فرقوا بين الفوائل والاسجاع ، أما بمحظ شكلي من توازن المقاطع طولاً وقصراً وتماثل او اخرها او تقاربها ، وهو رأي « القاضي الباقلاني » . وأما بمحظ معنوي في مجس « اللفظ تابعاً للمعنى او العكس كرأي « على بن ميسى الرمانى » . لكن أكثر البلاغيين لم يروا فرقاً بين الفوائل

1) الطراز : باب التسجيع ، ط المقتطف بالقاهرة 1914 .

2) بدیع القرآن : ص 89 ، 108 ط نهضة مصر بالفجالة 1957 .

3) الرازي : التفسير الكبير ، سورة الفتح .

ويكفي للرد عليهما وعلى كل من ذهب الى مثل ما ذهبا اليه ، ان نذكر ان القرآن الكريم لم يقتصر على حذف الياء هنا في مقطوع الآيات ، ليقال انه قصد الى مجرد رعاية الفواصل وتماثلها .

وانما حذفت ياء الممتع الآخر المرفوع ، وواو وابها ، وياه المنقوص المحتلي بال ، فـ اواسط العمل ودرج الكلام ، كالذي في آيات :

فـ 41 :

« واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب »

النازعات 16 :

« اذا ناداه ربہ بالواد المتدرس طوى »

طه 12 :

« فلما اتوا نودي من شاطئه الواد الابسن في البقعة المباركة »

النمل 18 :

« حتى اذا اتوا على واد النمل قالت نملة يا ايها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون »

السروم 53 :

« وما انت به ساد المم من ضلالتهم »

هود 105 :

« يوم يات لا تكلم نفس الا باذنه »

الاسراء 11 :

« ويسعد الانسان بالشر دعاه بالخير »

البقرة 186 :

« واذا سألك عبادي مني فاني قريب اجيب دعوه الداع اذا دع ان لليستجبوا لي »

القمر 6 :

« قتول هنهم يوم يدع الشاع الى شيء نكر »

القمر 8 :

« يهتفون الى الشاع يقول الكافرون هذا يوم مسر »

- ولا مجال لقول في هذه الآيات وامثالها بعد حذف الياء المنقوص المعرف بال ، او آخر المضارع المرفوع الممتع بالواو والياء ، لرعايتها الفواصل ومشاركة بؤوس الآيات . وهذا ما ثناه الدين لمجلوا بمثل هذا

ومثله « النسابوري » في تفسيره لآيات الصحن (1) .

ولو كان البيان القرآني يتعلق بماذا الحذف لمجرد النسق اللظفي ، لما عدل من رعاية الفاصلة في الآيات بعدها :

فاما البثيم فلا تغير . واما السائل فلا تغير . واما بنعمة ربك فجديد »

وليس في السورة كلها ثاء ناصرة .

بل ليس فيها ثاء على الاعلاف .

وعلى مدحهم كانت الفواصل ترمي بمثل لغظ « فجدير » - واما بنعمة ربك فجدير - لاستقيم المعنة البلافية .

ونرى ان حذف الكاف من « وما قل » مع دلالة السياق عليها ، تقضيه حساسية معنوية مرهفة باللغة الدقة واللطف ، هي تحاشي خطابه تعالى حبيبه المصطفى في موقف الابناء : « وما قلاك » لما في القلب من حس الطرد والإبعاد وشدة البغض . أما التوديع فلا شيء فيه من ذلك ، بل لعل الحس الغوي فيه يؤذن بأنه لا يكون وداع الا بين الاحباب ، والفارق فيه على كره ، ومع وجاه العودة .

وحذفت كاف الخطاب في الآيات بعدها ، لأن السياق بعد ذلك أفق منها ومنسى أعلى السياق الدلالة المرادة مستفيها من الكاف ، فذكرها من الفضول والخشوع المتره منها أهل بيان .

- * -

وآيات الفجر :

« ... والليل اذا يسر . هل في ذلك قسم لـ حجر . الم ثم كيف فعل ربك بعاد . اور ذات العـاد . التي لم يخلق مثلها في البلاد . ونعود الذين جابوا الصخر بالواد . وفرعون ذي الاوتاد ... »

قال « الفراء » في (معانى القرآن) ان ياء العلة حذفت من الفعل : يسر (اي) قصد المشاكلة بين رؤوس الآيات . وكذلك ذهب « ابن سنان الخفاجي » إلى ان حذفها وحذف ياء : بالواد (اي) لتماثل الفواصل

على هامش تفسير الطبرى . ط مصر .

وفي التقديم والتأخير قالوا برعاية الفاسقة في مثل آية الليل :

« ان علينا للهدي . وان لنا للآخرة والاولى » عدل البيان القرآن فيها عمما هو مالوف ومتبار من تقديم الاولى على الاخيرة . وليس التعق برعاية الفاسقة هو الذي التفسى وحده تقديم الاخيرة هنا على الاولى . وانما افتضاه المعنى في سياق البشري والوعيد ، اذا الاخرة خير وابقى ، وعداها اكبر وادن ، واخرى وابقى .

وكذا قدمت الاخرة على الاولى في سياق البشري للمصطفى بآية الفتح : « ولآخرة خير لك من الاولى » .

كما قدمت الاخرة على الاولى في سياق الوعيد لفرعون اذا ادبر وتولى « فاخذه الله نكال الآخرة والاولى »

النفس مع القسم :

ومن القواهر الاسلوبية اللائنة في البيان القرآني مجيء القسم بعد لا النافية في مثل قوله تعالى : « لا اقسم بيوم القيمة . ولا اقسم بالنفس اللوامة » وقد اختلف اللغويون في تأويل حرف « لا » وتوجيه القسم بعده . وجاء به « ابن هشام » في باب : لا ، الزائد في الكلام لمجرد تقويته وتأكيده .

والخاص مختلف اقوالهم فيها :
— قبل هي نافية . ثم اختلفوا في تأويل المثلث بما :

منهم من قال انها تنفي شيئاً تقدم في سورة اخرى . انكر المشركون البعض فقيل لهم : لا ، ليس الامر كذلك . ثم استئنف القسم : اقسم .

ووجه هذا التأويل هندهم ان القرآن كنه كالسورة الواحدة . ولمدة يذكر الشيء في سورة ، وجوابه في سورة اخرى ، وما ذكروه من ذلك ، قوله تعالى :

« وفألا يا أيها الذي نزل عليه الذكر انك لجانون » جوابه في سورة اخرى :

« ما انت بنعمتك ربك بمجنون » ورده ابو حيyan بأنه لا يجوز ، لأن في ذلك حذف اسم « لا » وخبرها . وليس جواباً لسائل سال

القول في آياتي الفجر ونظائرها ، محكمين الى قواعد اللغويين لى احكام الحذف لحرف العلة او الابات ، في المضارع المعتل الاخر والاسم المنقوص . حين يتبين ان نعرض قواعدهم على ما يهدى اليه الاستقراء لكل مواضع الحذف والابات في الكتاب المحكم والبيان المعجز .

وآياتاً اعملي :
« سبع اسم ربك الاعلى . الذي خاق نسوى »
والايسل :

« الا ابتلاء وجه ربه الاعلى . ولسوف يرضى » ليست صيغة الاعلى معدولاً اليها فيها عن العلي لمجرد رعاية الفاسقة ، ولا ازيد بها المفاضلة بين اعلى وعال ، على ما وهم بعضهم . وقد اشار « الفخر الرازى » الى ما تعلق به الملاحظة في : ربه الاعلى « من اقتضاء ان يكون هناك رب آخر » (1) على ما يقضي به منطق التفضيل وقواعده .

وذلك من عقم الحس فيهم ، ينفي عنده السر الباني في اطلاق هذه الصيغة دون تصد الى مفاضلة او ترتيب ، وانما القصد الى المفضي بالعلو الى نهايته التصوّي بغير حدود ولا قيود .

وهو نفس الملحظ الدلالي لصيغة : الحسنى ، واليسرى ، والاتفاق ، والاشقى ، في سورة الليل ، الدلالة على نهاية الحسن والتقوى ، وأنفع السوء والشقاء الذي لا يماثله شقاء .

ومثلها صيغة الاكرم في آية القام :
« افرا وربك الاكرم . الذي علم بالقلم »

تناولها المفسرون على المفاضلة بين اكرم وكريم ، وساقوا وجوها لاكرميته تعالى . (2)

والاستقراء القرآني ، يشهد بان صيغتي الانفع والفعلى ، تفيدان الاطلاق الى الفصى المدى ، بغير تبد ولا حدود .

وهذه هي دلالة الآية الكبيرة في (النازعات والنجم) وآياتنا الكبيرة في (طه) والبطشة الكبيرة في (الدخان) والعلامة الكبيرة في (النازعات) والنار الكبيرة في (الامل) والكلمة السالك والكلمة العليا في (التربية)

— * —

(1) الفخر الرازى . التفسير الكبير ، سورة الليل . وسورة القلم .

تبرى اليهم « بباء بعد المهرزة » ، تولدت من اثناء
كسرتها⁽²⁾ .

ولما كانت لام الابتداء لا تدخل على الفعل ، قدرروا
دخولها في الآية على جملة من مبتدا وخبر : للأنس
اقسم . ثم حذف المبتدا .

ورد « الرمخشري » بان اللام في هذه القراءة
لا تصح ان تكون لام القسم لامرین : احدهما ان حقها
ان يقرن بها النون المؤكدة ، والاخلال بها غريب قبيح ،
والثاني ان سباق الآية يرشد الى ان القسم بمواقع
النجوم واقع ، ومقتضى جعلها جوابا لقسم محلوف
ان تكون للاستقبال ، وفعل القسم يجب ان يكون
للحال⁽³⁾ .

فيحصل ذلك ، نحو قوله : لا ، لمن قال : هل من رجل
في الدار⁽¹⁾ .

واما انها تنفي الفعل « اقسم » وذلك على ان
يكون اخبارا لا انشاء ، على تقدير ان المقام به يستحق
اعظاما نوق القسم »

وفي هذا زالدة . على خلاف كذلك في فائدتها
منهم من قال انها زيدت بوطئة وتمهيدا للنفس
الجواب محلوفا . وتقديره في آية القيامة « لا اقسم
بيوم القيمة . ولا اقسم بالنفس اللوامة » لا يتركون
سدى .

ورد هذا التأويل بان الجواب ثابت في مثل
قوله تعالى :

« لا اقسم بهذا البلد . وانت حل بهذا البلد .
ووالله وما ولد . لقد خلقنا الانسان في كبد »

وقوله تعالى :

« فلا اقسم بمواقع النجوم . وانه لقسم لو
تعلمون هظيم . انه للقرآن كريم » .

— وذهب آخرون من قالوا بزيادتها الى انها
زيدت لمجرد التأكيد وتقوية الكلام ، كما في قوله
تعالى :

« ثلاثة يعلم اهل الكتاب الا يقدرون على شيء من
فضل الله » الحديـد 29 .

— ورد بانها لا تزاد لذلك في صدر الكلام ، بل يجب
ان تزداد حشوا . لأن زيادة الشيء تفيد اطراحه ، وكونه
في اول الكلام يفید الامتناع به⁽²⁾ .

— وقول ثالث : انها ليست ذاتية ولا زالدة ، وانما
هي لام الابتداء تقول الشاعر :

« اهؤ بالله من العقارب » .

افبنت الفتحة لتولدت منها الف ، وانما هي :
لام القسم . وهي قراءة العسن لآية « فلا اقسم برب
المشارق » اثبتت نشحة اللام حتى تولدت منها الف ،
قراءة هشام لآية ابراهيم : « فاجمل اثنيـة من الناس

1) البحر المحيط : 8 / 212 سورة الواقعة .

2) ابن هشام مفني الليبي 1 / 184 — ابو حيان في البحر المحيط : ج 8 .

3) الرمخشري : الكشاف 4 / 61 سورة الواقعة .

وبعد هذه كنه نرد الى القرآن ما تنازعوا فيه ،
فنسأل باديء ذي بدء ان تكون (لا) في آيات القسم ،
رددت على « كلام سبق في سودة اخرى » . وهذا التأويل
يبدو غريبا فيما نظروا له من قوله تعالى : « ما انت
بنعمه ربك بمجنون » ردًا على ما حكى من قولهم « انك
لمجنون » ووجه الفراوة فيه ان الرد سابق في التزول
على ما حكى القرآن من قولهم : « انك لمجنون »

اذ كيف تكون آية من سورة القلم ، وهي ثالثي
سور فنزلت من القرآن ، ردًا على آية فنزلت بعدها في
سورة الحجر ، وترتيبها في التزول الرابعة والخمسون؟
وتأويل « لا اقسم » بانها « لا قسم » اثبتت فتحة
الالف فيها فنزلت منها الف ، يبدو من شطط التأويل
تجاه اطراد مجيء « لا » في كل آيات القسم القرآني
حيثما كان الفعل مبنيا الى الله تعالى :

الواقعة 75 :

« لا اقسم بمواقع النجوم . وانه لقسم لو
تعلمون هظيم . انه للقرآن كريم » .

الحافظة 38 :

« لا اقسم بما يبصرون . وما لا يبصرون . انه
لتقول رسول كريم » .

المراجع 40 :

« فلا اقسم برب المغارق والمغارب انا لقادرون »

القبامة 1 :

« لا اقسم يوم القيمة . ولا اقسم بالنفس اللوامة . ایحسب الانسان ان لن نجمع مظمه ..
بای قادرین علی ان نسوی بنانه »

النکویر 15 :

« فلا اقسم بالخنس . الجوار الكنس . والليل اذا عمس والصبح اذا تنفس . انه لقول رسول کریم »

الاشقاق 61 :

« فلا اقسم بالشفق . والليل وما وسق .
والنمر اذا اتسق . لتركين طبقا عن طبق »

البلد 9 :

« لا اقسم بهذا البلد . وانت حل بهذا البلد .
ووالد وما ولد . لقد خلقنا الانسان في كبد
ولم يات فعل القسم في القرآن كله ، مسندًا الى
الله تعالى بغير ((لا)) .

كما لم تأت « لا » مع القسم مسندًا الى غيره
تعالى .

وهذا الاصرار بعد احتمال ان تكون « لا » هي لام
الابتداء ، اثبتت نتتها نشولدت منها الف .

كما بعد احتمال ان تكون ((لا)) زائدة والمعنى :
قسم ، كما اختار ابو حيان . وقد قالوا هم انفسهم
ان زيادة الشيء تفید اطراجه ، ولا يمكن اطراح « لا »
وما من آية استند فيها فعل القسم الى الله سبحانه
وتعالى ، لم يجيء بعد « لا » .

فهل هي مزيد توطئة للنبي وتأكيد له ؟ قالوا ان
ادخال لا النافية على فعل القسم جاء في كلام العرب
واشعارهم كقول امرئ القبس :

فلا وايسك ابنة العاسري
لا يدمى القوم اني اسر
وقال غوبة بن سلمي :

لا نادت امامية باحتمال
لتحزنني فلا برك ما ابالي

وقال آخر :

* نلا وابي اعدالها لا اخونها *

وجعلوا منه قوله تعالى :

« لثلا يعلم اهل الكتاب الا يقدرون على شيء من
فضل الله » الحبيب 29 .

والآية ، كما لاحظ ابن هشام ، في سياق النفي .
وكذلك كل الشواهد الشعرية التي ذكروها ، سياقها
النفي . وليس الامر كذلك في آيات « لا اقسام » وكلها
في سياق الآيات والتقرير .

ونفهم ان ثانية « لا » في سياق النفي فتؤكدده ،
اما ان ثانية لتأكيد الآيات بالنفي بذلك ما يبدو غريبًا
حتى !! والقسم هو اقوى اسباب التأكيد ، ولا يمكن
تأكيده بنفيه ، لأن النفي نقيف الشك ، فإذا نفيت
القسم انتقض بتأكيده اياه . والجمع بينهما اولى بان
يصطدمها كليهما على القاعدة الاسمية في الدليلين
تعارضا فتساقطا .

افلا يهدينا تدبر سياق آيات « لا اقسام » لله
تعالى ، الى ان « لا » تنفي حاجة تعالى الى القسم ؟
بل ، وانما تحتاج نحن البشر الى ان نقسم دلالة
لمكانة الاتهام وازاحة الشك . ومن ثم تلمع سر العربية
اذ تستعمل هذا الاسلوب حيث تتضمن الحاجة الى
القسم ، في مواضع الثقة واليقين .

ومن نفي الحاجة الى القسم يأتي التأكيد والتقرير ،
لانه يجعل القسم او المقسم عليه ، في غنى بالثقة
واليقين من الاقسام . والسر البلياني لهذا الاسلوب
يعتمد في قوة اللفت على ما يبدو بين النفي والقسم من
مقارنة مثيرة لافتتاح الانتباه . وما نزال في مالوف
استعمالنا نؤكد الثقة بنفي الحاجة معها الى قسم ،
فتقول لمن شق فيه : لا تقسم او : من غير يميّن .
مترورا انه موضع لفتتك فلست بحاجة الى ان يقسم لك .
كما تقول لصاحبك : لا او ميك بغلان ، تأكيدا للتوصية
بنفي الحاجة اليها .

وإذا اكتفى بهذا القدر مما هدّى به البيان
القرآنی من اسرار لغتنا في العرف لا يفني منه سواد ،
وفي الكلمة لا تقوم مقامها أخرى غيرها ، وفي النظم لا
تعرف العربية ما يداينه بلاغة وبيانه .

ارجو الا يظن بي اني اجحد جهود سلفنا الصالح
فيما اصلوا من علوم العربية والاسلام ، فالحق انتي

و بعد فما ازعم ، وما ينفعني لي ، انسى فيما
اجتلىت واجتلى من اسرار العربية في البيان القرآني
قد شارت افته العالى .

ولكنها محاولة ابتنى بها ثواب المسمى وشرف
الوصلة والقربى ، بطول العكوف على خدمة القرآن
الكريم ، وجهد التدبیر لاسرار بيانه المعجز .

و ينفي القول ولا تنفي كلمات ربى :

« قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفس البحر
قبل ان تنفي كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدادا . »

صدق الله العظيم

د. عائشة عبد الرحمن
(بنت الشاطئ)
أستاذ الدراسات القرآنية بجامعة التراثيين

أشعر بالقصور والخجل تجاه ما تركوا لنا من عطاء
سخى باذل ، كان لنا على مر المصور وتتابع الأجيال
ذخيرة ومدادا . وما أرأتا تكون خلف صدق لهم اذا لم
تحمل أمانة وجودنا ، لنضيف الى تراثهم ما تركه
للأجيال من بعدها عطاء وميراثا .

و قد يشق علينا ان نضيف الى ما اصلوه من علوم
العربية والاسلام جديدا ذا بـال ، الا ان يفسر
المتخصصون هنا في الدراسات العربية والاسلامية
لتدبیر القرآن الكريم نجتلى من اسراره ودلائله ما
يكون قد غاب عن سلفنا الصالح وهم عاكفون على
تأصيل فوائد علومهم ، بالكتاب الاعظى الذي يظل على
امتداد الزمان والمكان سر وجودنا وذخر حياتنا .



(تصويبات)

- وقمت بخطاء مطبعية في هذا البحث لستدركها فيما يلي : 1) يتحدى (بدل ويتعدى) : ص 12 سطر 4 - فلنج 1 -
2) في مثل آية (بدل في ٤٢) : ص 13 - س 20 - فن 1 - 3) يؤنس (بدل يومه) : نفس الصفحة - س 26 - 4) يجهشه
(بدل يصعبه) : ص 15 - س 5 - فن 2 - 5) لا تحتمل (بدل لا يتحمل) : ص 16 - س 4 - فن 2 - 6) ومسر (بدل عمر) :
فن 18 - س 30 - فن 1 - 7) وهلي (بدل وها) : ص 19 - س 25 - فن 2 - 8) لافت او دفاع (يحدف ما يدخلها وهو) : يحيى ٩
يختلف رجل من رجال ... (بدل لا يتضارون) : ص 21 - س 28 - فن 1 - 9) لا يتضارون (بدل لا يتضار) : ص 21 - س 30 - فن 1
10) من لا يفارق (بدل من يفارق) : ص 21 - س 31 - فن 1 - 11) التلبيه بين (بدل الفاظهم جميعها على) : ص 21 - س 1 فن 2
12) الواحد اللاتى (بدل الواحد اللاتى) : ص 22 - س 10 - فن 1 - 13) 105 (بدل 109) : ص 19 - س 2 و 5 (بدل 50) :
س 22 - س 2 و 100 (بدل ٦٥) : ص 23 - س 25 - فن 2 - 14) حس (بدل وحس) : ص 24 - س 28 فن 2 - 15) وهو الله
(بدل وهو الله) : ص 25 - س 6 - فن 2 - 16) صيغة (بدل صيغة) : ص 25 - س 26 - فن 2 - 17) وان كان كلاما في
الواقع حلقت بعد ٣ خطبه : ص 28 - س 14 - فن 1 - 18) الازوجية (بدل الزوجية) : ص 28 - س 28 فن 2 - 19) الا ان
(بدل ان) : ص 29 - س 15 - فن 1 - 21) مرهلنا (بدل مرهلة) : ص 29 - س 25 - فن 1 - 22) جاءه (بدل لهم يجهس) :
فن 36 - س 27 - فن 1 - 23) طيبة (بدل طيبة) : ص 36 - س 25 - فن 1 - 24) طيبة (بدل طيبة) : نفس الصفحة - س 33
- فن 1 .

من خصائص اللغة العربية

الأستاذ أ. محمد عبد الرحمن الساعي - جامع الأزهر

رسالة دكتوراه هندسة شمس

للغة العربية خصائص ومحاجات بيت بهما يهرا لا تدانيها فيها لغة من اللغات ذات تستطيع ان تصنع من مفرداتها المأوشة نظماً ، مما تسرع به الالباب وتاخت بالفهم وتتالق بالمقول في عالم السمو والبحر والابداع .

وعناية العربية بجمال الالفاظ وحسنها ، لا لذات الالفاظ . وانما اهتماماً من اللغة العربية بالمعنى . وذلك حتى يقع القول من نفس السامع الموقن المرجو الذي يهم له الحالة النفسية التي تحفزه الى الحركة والعمل وتبثث به الى المقصد في ثوب مغوف ووسام لامع جذاب اخاذ ساحر .

العين) دل على صفات تقع من احوال كالعششان والفرنان والشبعان والريان والنضبان ، وما كان على «أفضل» دل على صفات بالالوان نحو : ايض واحمر واسود واصفر واخضر ، وكذلك المبوب تكون على افضل نحو ازرق واحول واعول واقرع واقطع وامرجم واهيف وتكون الادواة على «فعال» كالصداع والزكام والشعال والخناق والكبد .

والاسوات اكثراها على هذا كالصرخ والنباح والصياح والرثاء والغناء والغوار ، وفصل فاخر منها على «فعيل» كالضجيج والهزير والمدير والصميم والنهيق والزئير والضغيب والنعمق والتعجب والغرير والصريير . وحكاية الاسوات على «فعلة» كالصرمرة والقرفة والفرغة والتعيمة والخشخة واطعمية العرب على «فميلة» كالسخينة والتغيبة والهزيره والتعيبة والمعيبة ، واكثر الادوبة على «فعول» كاللعمق والسمو ووالوجود واللدواد والذروه والتطول ، واكثر العادات في الاستثناء على «فعمال» نحو مطعم ومطعم ومطراب ومضراب ومضياب ومكتار ومهدار وامراة معطار ومذكار ومشناك ومتثام ،

1) الدالة المعنوية

ولقد ثبت من المقارنة بين اللغات ان اللغة العربية من اشهر اللغات دالة معنوية بل ان الكثير من الالفاظ العربية قد فقد الدالة الحية .

قال جورجي زيدان : فالفعل «قضى» معناه «حكم» والاصل فيه القطع الحسي والفعل «قتل» معناه «قام» وهو مأخوذ من مقل النائمة اي زيطها والفعل ادرك ، الاصل فيه التلوغ الحسي فيقال : فلان ادرك القطار اي لعنته ؛ والفعل «بنغ» وضع اصلا للدلالة على الرسول العس في المكان والزمان ، بل ان الاصل في معنى الفساحة قولهم : نصع للبن اذا ذهبت رفوته ، ثم قيل : فضائح بمعنى وضع و «الرأي» اصله من «رأى» اي شهد بعيته

وفي العربية اينية وصيغ وقوالب دالة على معان وصفات واحوال . فيما كان على «فلان» (بالتجريح) دل على الحركة والاضطراب كالنزوان ، والغليان والضريان والهيجان . وما كان على «فعلن» (بسكون

(واست فعل) يكون بمعنى التكليف نحو استعظم اي تعظم واستكبر اي تكبر ويكون است فعل بمعنى الاستدعاء والطلب نحو استطعم واستبني واستو هب ويكون بمعنى فعل نحو استقر اي فر ويكون بمعنى سار ، نحو استنون العمل واستنصر البغاث .

(افت فعل) يكون بمعنى فعل نحو اشتهى اي شوى واقتني اي قس اي كسب ، ويكون لعدوث صفة نحو : افتقر وافتتن وما الفعل فهو فعل المطاومة نحو : كسرته فانكسر وجبرته فالجبر وقلبه فالقلب قال ابن جنى : « فإذا رأيت العرب اصلحوا الفاظها - العربية - وحموا حواسيها وهذبوا ومقلوها غربوها وارهقوها فلا ترين ان المنابع اذ ذاك انما هي بالالفاظ ، بل هي عندنا خدمة للمعاني وتنويه وشريف ونظير ذلك اصلاح الوماء وتحميشه وتزكيته وتقديسه وانما المبني بذلك منه الاحتياط لنعوم عليه وجواره بما يمطر بنشره ولا يعر جوهره كما قد تجد من المعاني الفاخرة السامية ما يهمجه ويغض منه كدرة لفظه وسوء العبارة عنه .

وذلك ان العرب كما تعنى بالفاظها فتصلحها وتهذبها وتراعيها وتلاحظ احكامها بالشعر تارة وبالخطب اخرى وبالاسجاع التي تلتزمها وتتكلف استمرارها . فان المعاني الوي عندها واكرم عليها والفتح قدرا في نلوسها فاول ذلك هناتها بالفاظها فانها لما كانت هنوان معانيها وطريقا الى افهمار افراشها ومراسيمها اصلحوها ورتبوا وبالفوا في تعبيرها وتحسينها ليكون ذلك اوقع لها في السمع واذهب بها في الدلالة على القصد .

فكان العرب انما تخلق الفاظها وتذهبها وتشيبها وتزخر فيها هنوية بالمعاني التي وراءها وتوصلا بها الى ادرك مطالبيها وقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ان من الشجر لحكمة وان من البستان لسحرا فماذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم - يعتقد هذا في الفاظ هؤلاء القوم التي جعلت مصالده وأثراها للقلوب وسيبا وسلما الى تحصيل المطلوب ، عرف بذلك ان الالفاظ خدم للمعنى والمخدوم لا شك اشرف من الخادم والأخبار في التلطف بمندوية الالفاظ الى تضليل العوالج اكثر من ان يؤتي عليها او يجثيم للحال تعب بها .

واعلم انه لما كانت الالفاظ للمعنى ادمة وظيفتها ادلة ولها موصولة ، وعلى المراد منها مخصلة هنبت

وصيغ الافعال واوزانها في اللغة العربية هامل من عوامل ثروة اللغة وقدرتها على الذلالة على شرقي وخلال تنفسها الى المعنى الاصلي ، دون زيادة في اللفظ ومع الاختفاذه بطابع التركيز والدقة قال الشاعري في الاكثر الالتب (فعل) يكون بمعنى التكثير كقوله عن ذكره « وطلقت الابواب » قوله ، يذهبون ابناءكم » و (فعل) يكون بمعنى (فعل) نحو خير واخير وكرم ونذر وائزل ويكون مضافا له نحو افرط اذا جاوز الحد وفقط اذا قصر قال الشاعر

لا خير في الافراط والتفريط
كلامها مندي من التخلص

وقلت في كتاب البهج : اياك والافراط الملل ،
والتفريط المخل .

و (افعل) يكون بمعنى فعل نحو استقي وسكن وامضه الود ومحضه ، وقد يتضادان نحو نشط العقدة اذا شدتها وانشطتها اذا حلها .

(افعل) يكون بين النين نحو : ضاربه وبازره وخاصمه وخاريه وقاتلته ويكون بمعنى فعل كقوله من وجل ، قاتلهم الله اي قتلهم .

(اتفاصل) يكون بين النين وبين الجماعة نحو تجادلا وتناظرا وتحاكما ، ويكون من واحد نحو تراهيه به ويكون بمعنى اظهر نحو : تفائل وتجاهل وتمارض وتساكر اذا ظهر فحصة وجهلا ومرضا وسکرا وبس بفال ولا جاهل ولا مريض ولا سكران .

(اتفعل) يكون بمعنى فعل نحو تخلصه اذا خلصه كما قال الشاعر :

تخلصني من فحفلة الفس منعما
وكتت زمانا في ضمان اسارة

وكما قال عمرو بن كلثوم :

نهذلنا واعذلنا رويدا
معنی کنا لامک مقتولینا
ويكون بمعنى التكليف نحو تشجيع وتجدد ونحکم ويكون لاخذ الشيء نحو : تاذب وتفقه وتعلم ويكون تعلم بمعنى : فعل نحو تعلم بمعنى اعلم كما قال الخطامي :

نعلم ان بعض الشر خير
وان لهذه القسم اقساما

عن عدد ضخم من المفردات المركبة المنزولة التي كان لابد منها لو عدم الاشتغال ، وان هذا الارتباط بين الفالق العربية الذي يقوم على ثبات عناصر مادية ظاهرة وهي الحروف او الاصوات الثلاثة . وثبات قدر من المعنى سواء كان ماديا ظاهرة او مخفيا مستترا . خصيصة عظيمة من خصائص هذه اللغة تشعر متلعلمها بما بين الفاصلها من صلات حية تسمح لنا بالقول بأن ارتباطها حيوي وان طريقتها حبوبة توبلدية وليس آلية جامدة .

قال الدكتور مثنان أمين : اذا اردنا مثلا على ثروة العربية بهذا الضرب من الاشتغال والتصريف فلننظر الى كلام رجل من المشتغلين بالعلوم الطبيعية ، فهو يرى في الكلمة مثل « صهر » اي اذاب الجسم بال النار انه يستفاد لتأدية هذا المعنى بكلمات دقيقة من حالات الجسم تختلف غيرها من الحالات فنقول انصهر واستصهر وتصاهر ومنصهر ومصهر ، وفي العربية منهجا اخر مخالف للفات الاخرى فان العربية تدل بالحركات على المعاني المختلفة . من غير ان تكون تلك الحركات اثرا مقطعا او بقية من اداة فيكون ذلك في وسط الكلمة او اولها وما خرها فهم يفرقون بالحركة بين اسم الفاعل واسم المفعول في مثل مكرم ومكرم وبين فعل المعلوم وفعل المجهول نحو : كتب وكتب وبين الفعل والمصدر في مثل علم وعلم وبين الوصف والمصدر في مثل فرح وفرح وبين المفرد والجمع في مثل اسد واسد وبين الفعل والفعل في مثل قدم وقدم وبين الاسم والاسم في مثل سحور وسحور .

2 - العربية وفلسفة الاعراب

اللغة العربية : من اللغات العربية النبت الواسعة الافق اتسعت فاحاطت بأبعد انتلاقات الفكر وارتقت حتى صارت ارقى اختلاجات النفس .

ولقد زادتها مروقتها تلورا وتفاعلها ونماد وفيرة على النهوض بتطورها الحضارية عبر التطور الذي تعيشه الإنسانية في مسيرتها .

وكان لها عبر الزمن الاصالة الجاهضة المؤلدة المقطورة . والميزات المطواومة المتطورة .

العرب بها فاولتها صالحها من تثقيفها واصلاحها (1) ، وشيء ما خر يجعل اللغة العربية اكثر مرونة في الواقع من غيرها . وهو أنها اكثر اللغات قبولا للاشتغال . والاشتغال باب واسع تستطيع به اللغة ان تؤدي معاني الحضارة والاشتغال في العربية يقوم بدور لا يستهان به في تنوع المعنى الاصلي وتلوينه اذ يكتسبه خواص مختلفة بين طبع وطبع وبماقة وعمقاقة ومشاركة وتبادلها مما لا يتيسر التعبير عنه في اللغات الارية مثلا الا بالفاظ خاصة ذات معان مستقلة ، ويسعى الالفاظ العربية تفرق تفرق واسحة بين الجوانبي والبرانجي وبين ما هو حركة في النفس وما هو حرقة في الجوارح . العربية تفرق مثلا بين الكبر والتكبر والعلم والتعلم والفقه والتفقه .

وقد التفت المستشرق الفرنسي كرادوفو الى هذه الظاهرة فلم يسعه الا ان ينوه بها في كتابه عن الغرالي فقال « لقد ميز الغرالي بين الكبير الداخلي والكبير الخارجي . الداخلي هو استعداد في النفس والخارجي ناتج من افعال الجوارح واللفظ الفرنسي الذي يدل على معنى الكبر هو Orgueil اما التكبر فاولى ان يكون مراده الفرنسي Superbe .

ولاحظ كارا دوفو ايضا ان هذه الفروق « المعنوية الدقيقة التي تحملها الفاظ اللغة العربية ليس من الميسور نقلها في لفظ واحد الى اللغات الاخرى . وخاص من هذه الملاحظة الى التنوية بما تعلو عليه العربية من قدرة ذاتية على التعبيل الفلسفى العميق ما دام ان احداث تغيير طفيف في بنية اللفظ العربي يسمح بذلك اللغة بان تميز بين الحالة النفسية وبين العادة البدنية التي تطابقها . ولا نزاع في ان منهج اللغة العربية الفريدة في الاشتغال قد زودها بدخيرة من المعانى لا يسهل اداوها في اللغات الاخرى في نطاق التركيز الجوانبي الذي هو شيمية الاسلوب العربي الاصيل وند لاحظ السبويطي هذه الزيادة نس المعنى المشروك حين مرف الاشتغال بأنه « اخذ صيغة من اخرى مع اتفاقهما معنى ومادة وهيئة تركيب ليبدل بالثانية على معنى الاصل بزيادة مفيدة لاجلها اختلافا حرونها او هيئة .

وجلي : ان هذه الطريقة في توليد الالفاظ بعضها من بعض يجعل من اللغة جسما حيا تتوالد اجزاءه ويحصل بعضها ببعض باواصر قوية واسحة ، وتفني

(1) الخصائص لابن جنji الجزء الاول من 225 - 228 . طبعة الملال - مصر

ولما كانت معانى السمين مختلفة كان الامر ارب الدال عليها مختلفا ايضا . وكانه من قوله : «عريت معدته» اي فسدت . كانها استحالات من حال الى حال ، كاستحالات الامر ارب من صورة الى صورة .

الامر ارب الذي مطلب العقل في اللغة ولذلك يرى بعض الباحثين والدراسين من علماء مقارنة اللغات ان الامر ارب ابقى ما وصلت اليه اللغات في الوضوح والابانة وهذه المرتبة قد بلقتها العربية الفصحى ، ولا يشار إليها فيه من اللغات القديمة الا اليونانية واللاتينية ، ولا يشار إليها فيه من اللغات الحديثة الا الالمانية .

اما اللغات الاربة الحديثة - وتشمل معظم لغات اوروبا الحديثة - فقد خلت من حالات الامر ارب ولا مييز فيها بين الرفع والتصب والجر ، وانما يقوم مقامها الحال ادوات خاصة بذلك معظمها من حروف الجر او بتقديم اللفاظ وتاخيرها مما لا يخرج عن الوضع الخارجي في المكان ، هذا في حين ان اللغة العربية قد استلزمت من اول الامر - ما دام الامر مرعبا - وان يكون الفكر الواعي محدودا للوضع الخارجي وان يكون النظر الى المعنى هو المبرر للتقديم والتاخير وتاكيد الاسناد ، وغير ذلك الا ترى انك اذا سمعت : اكرم سعيد اباه ، وشكرا سعيدا اباه ، مللت برفع احدهما ونصب الآخر ، الفاعل من المفعول ولو كان الكلام نوعا واحدا لاستبهم احدهما من صاحبه .

في الامر يعرف الغير من الانشاء والمفعول من الفاعل وبه يتميز الصاف من المنعوت والتمجيء من الاستفهام والنعت من الحال الى غير ذلك .

وبالجملة : تغير المراض المتكلم منذ السماع يكفي فيه الامر فالامر في مثل (ما احسن زيد) يفتح نون احسن وضم دال زيد كانت « ما » نافية وانت ت يريد ان زيدا لم يحصل منه احسان .

واذا قلت (ما احسن زيدا) يفتح النون والدال كانت « ما » تعجبية وانت ت يريد ان شيئا مجيئا جعل زيدا حسنا .

واذا قلت (ما احسن زيد) بضم النون وكسر الدال ، كانت « ما » استهابية وانت ت يريد معرلة اي شيء حسن لي زيد ملمه ام ادبها ام اخلاقه ..

الخ ..

وانك لتحس هذا في كلماتها التي تمثل خطرات النفوس ونبضات القلوب وكل كلمة لها في الجملة مكان يحس بها المتكلم او تحس بها الكلمة نفسها .

ولهذا صارت - بفعل عوامل مختلفة - اللغة حية بازرة ، ذات دلالة ووضوح ، وزادها مثانة وابانة والاصحاح من المعانى : الامر ارب .

والعربية لغة تتوكى الإيصال والإصالة والامر ارب احدى وسائلها لتحقيق هذه الغاية : غاية الإيصال والانصاح من صفات الكلمات العربية بعضها يبعض وعن نظم تكوين الجمل بالحالات المختلفة لها .

وهي اللغات الخالية من الامر ارب يعتمد اهل اللغة على القرآن وعلى اضافة كلمات الى الجملة لفهم المقصود من المعانى ولكن الاعتماد على القرآن ربما لا يطرد - كما يقول صاحب الطراز - فما واجب العربية التفريق بين الفاعل والمفعول والا وقع البس والابهام .

والامر ارب : مصدر اعريت من الشيء اذا اوضحت عنه . ويقال : فلان مغرب مما في نفسه اي مبين له وموضع عنه ومنه : عريت الفرس تعربيا اذا برقته . وذلك بان تنسف اسلل حائله .

ومعناه : انه قد بان بذلك ما كان خفيا من أمره لظهوره الى مرأة العين بعد ما كان مستورا وبذلك تعرف حاله اصلب هو ام رخو وأصحج هو ام سقيم وغير ذلك .

ووصل هذا كله قوله : « العرب » وذلك لما يعرى اليه من الفصاحة والامر ارب والبيان ومنه قوله في الحديث « الشيب تعرب عن نفسها » والعرب صاحب الغيل المراب وعليه قول الشamer :

ويصل في مثل جوهر الطوى
صهيلا تبین للمرء

اي اذا سمع صاحب الغيل المراب صوته علم انه مربى ومنه : المروبة . والعروبة الجمدة وذلك ان يوم الجمعة ظهر امرا من بقية الاسبوع لما فيه من التائب لها والتوجه اليها وقوة الاشعار بها قال الشamer العربي القديم :

بوالمرء للعروبة صيما

فمن قال : زيد جاذبى أنساد أن اهتمامه بالشخص من قبل المجهه المسند وكذلك التمييز من أجزاء الجملة بما يناسب المقام من موصول أو مبهم أو معرفة وكذا تأكيد الاستناد على الجملة كقولهم : زيد قائم وان زيداً قائم وان زيداً لقائم متغيرة كلها في الأدلة وان استوت من طريق الامرابة فان الاول العاري عن التأكيد انما يفيد الحالى الذهن والثاني المؤكيد يفيد التردد والثالث يفيد المنكر .

وكتير من كواكب الاستثناء وعلماء اللغات، نوهوا بخصوصية الاعراب في العربية قال العلامة «بركلمان» عند حديثه عن لغة الشعر العربي :

لقد تميزت لغة الشعر العربي هذه بشروء عظيمة من الصور النحوية وبلغت من حيث دقة التعبير عن علامات الاعراب والنحو ذروة التطور في اللغات السامية .

وقال الباحثان : « لوبي سينيون » في حين ان اللغة السريانية قد قتلت اجر ومتتها عن اللغة اليونانية نقلًا صرفاً ، استطاعت لغة الفساد ان تشيد بناءً ضخماً من الاعراب يضع امام اليسار مشهداً فلسفياً ذا روعة وأصالة .

فاللغة العربية لها من الخصائص لا فهام المعنى الدقيقة والمعانى الثانوية التي تصل الى نهاية الابداع وكمال الصنع ، ما يملك على السامع مشاعره ويستخدم حواسه ويدفعه حيث يشاء .

والاعراب في ذاته فلسفة لغوية تضع كل شيء في مكانه الملازم له وتعطي كل ذي حق حقه .
فلا ابهام ولا لبس ولا غموض ولا تقييد . بل وشوح وابانة وهدى واصحاح .

3) العربية والحركة

اللغة العربية من اعرق اللغات منبتاً واتسراً ورسوها وقواتها جلادة واشدها ينياناً وفي ظل الحضارة الاسلامية صارت ابعد اللغات مدى واوسعتها افقاً واقترنها على النهوض بتبعاتها الحضارية عبر التطور الدائم الذي تعيشه الإنسانية .

واستطاعت العربية في رحاب غالبية الاسلام ان تتسع لتحييد ما بعد انقلابات الفكر وترتفع حتى تعمد ارقى اختلافات النفس .

وقد يفرقون بين المعانى بالحركات وغيرها فالحركة يقولون : « مفتح » للآلة بكسر الميم وفتح الناء و« مفتوح » بفتح الميم لوضع الفتح ، وللفتح نفسه .

وقد يفرقون بين المعانى بغير الحركات كالتمييز بتأهيل التأثير وعدمها فيقولون امراة ظاهرة بدون النساء اذا ارادوا ظاهرة من الجيش لأن الرجل لا يشاركتها فيه اذا ارادوا ظهارتها من العيوب الخلائقية قالوا امراة ظاهرة لأن الرجل يشاركتها فيها فيحتاجون الى التمييز بيتهما ومثله امرأة قاعد اذا اقتلهما الحبل وقادعة من القعود اي جالسة لأن الرجل يشاركتها فيه فيقال : رجل قاعد . ويروى ان رجالاً دخل على امير المؤمنين علي - كرم الله وجهه - فقال له من فيسر اعراب : « قتل الناس عثمان » فقال له امير المؤمنين « بين الفاعل من المفعول رضي الله عنه ». .

وبنت ابنة الاسود البدوي وفجت مرة تشاهد السماء وتتجهب لجمالها . فقالت لابيها « ما احسن السماء » فقال ابوها : نجومها ، فقالت « ما عن هذا اسأل وانما انا اعجب » فقال لها اذن قولي « ما احسن السماء » وافتحي فاك . وسمع ابو الاسود فارساً يقرأ قوله تعالى « ان الله بريء من المشركين ورسوله » بكسر اللام في رسوله فاكبر ابو الاسود ذلك وقال : من وجه الله ان ييرا من رسوله .

وكان هذا سبباً في وضع علامات الامرابة للصحف باسم زيداد .

ويروي ابن قتيبة ان رجلاً من الخارج مدعى رئيسهم شبيباً بن يزيد الخارجي بقصيدة في بيت منها :

ومنا سعيد والبطين وقعن
ومنا امير المؤمنين شبيب

فأخذه عبد الملك بن مروان وسأله وهو يحاكمه عن هذا البيت فقال لم أقل هذا بل قلت : ومنا امير المؤمنين شبيب بفتح الراء في امير اي يا امير المؤمنين فامر بتحليلة سبيله .

وقد اشار ابن خلدون في مقدمته الى الامرابة مند العرب فقال : ان كلامهم اي العرب - واسع و لكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الامرابة والإبانة الا ترى ان قولهم : زيد جاذبى مثابر لقولهم : جاذبى زيد . من قبل ان المتقدم منهما هو الاهم عند المتكلم .

ولقد زادتها مرونتها وقدرتها على التلوك تبلوراً
وتفاعلها ونمادها وأميتها طاقة خلافة وحياة مدهشة .

وكان لحركتها التي امتازت بما : الاصالة
الجاهدة المولدة المطاء والميزات المطواة المتغيرة ولم
تعد حروفاً وقوالب فارقة يعلوها الفكر فتحمله ،
بل أنها بعض الإنسان المسلم يصون كينونته ، هو
ينبومها وهي مجرأه وقلنا أنها بعض الإنسان المسلم
لأنها لغة القرمان الكريم وانك تتعجب الأحساس الدقيق
متمنلاً في مفرداتها ويتجلّي هذا في التركيب ، لكل
كلمة لها في الجملة مكان يحس بها المتكلم وان شئت
عبارة أخرى فقل : تحس بها الكلمة نفسها .

ونكاد تمثل كلماتها خطرات النفوس وتصور
الظواهر مشاهد الطبيعة نكاد نتجلى معانيها في إجراس
الإلهاظ وتتمثل في نبرات العروض كائناً كلماتها
نبضات القلوب ورحيق الحياة ومشاعل القوة .

فليس هناك معنى من المعاني ولا فكر من
الافتخار ولا عاطفة من العواطف ولا نظرية من النظريات
تعجز اللغة العربية ، من تصويرها بالإحرف والكلمات
تصوّراً صحيحاً هي المقاطع يارى القسمات .

والحياة في العربية حياة حلقة مبنية ذات
ميئرة خاصة وكلماتها تشم بهذه الحياة في العين
الذى نجد الكلمات في سائر اللغات أدوات جاسدة
لا يعرف فيها معنى الحياة الا بعد أن تجتمع منها إلى
بعضها وتزلف عبارة .

وإذا كانت بقية اللغات أدوات للتعبير متى
بلغتها فقد بلغت الثانية القصوى وانتهت مهمتها فإن
اللغة العربية لا تكتفي بهذه الثانية بل هي ترسد ان
يكون التعبير جييلاً وتريد أن يمتد هنديها إلى أكثر
من ذلك فيتحول إلى فكرة مستمرة للجمالي واللائق
والذكاء نكرة تندفع بصورة تلقائية وتتوالد من نفسها
لأنها في تعاملها وتطورها كانها كالنار حي يذهب وبقيه
وتتجوّج فيه العواطف والاحاسيس ، وكلماتها الحية
ذات الأصول الثانية تتفرع منها المعاني المتقاربة فمثلاً:
النون والباء اذا اجتمعتا كانتا الجدر في مختلف
معاني البروز انظر الى فروع هذا الجدر نجد ان
معنى :

نبت : برب من الأرض ، ونبسط : اخرج
ماء البشر

ونسبع : خرج من العين ، ونبيع : خرج ظهر

إلى ما خر ما هناك من الكلمات التي تتشابه في
الأصل والبرية في عبقريتها لم تكتف بهذا النطق
الذى هو في حد ذاته قاعدة بل مدت إلى أكثر من
ذلك وما هي ظاهرة من ظواهر حياتها حتى في
الكلمات فهي تسهل اشتمل ما يكون التساهل حيال
من يتكلّمها كما يفعل الرجل الشهم إزاء صاحبه
تاماً ، خذ مثلاً كلمة « غضروف » إن اجتماع الفين
والصاد يشقّل أحياناً على اللون وتناسق العروض في
الكلمة يجعلها سريعة الانفعال من أخواتها في
المبارزة وفي السرعة ، فماذا تفعل البرية لتناسب
هذا الأمر أنها تسهل معك وتقول لك اذا لم تستطع
ان تلقط كلمة « غضروف » فاللقط « غضروف » فانها
هي نفسها ، فهي لا تختلف إلى الدرجة التي تشعر
بالبغض لها ، بل هي تأخذك بالحسنة .

وكان اللقة العربية بهذه العركية والحياة تزيد
ان تدفع بابناء الإسلام إلى المجد دفعاً وتصل بهم في
ظل القرمان الكريم إلى ذروة ما قدر لهم من نجاح ووز
وسؤدد ، وتفسّر لهم حب العمل والحركة
والامتناد على ان لا امل لهم الا في انفسهم وتبعد
في تلويهم النشاط وتشعّب السكون والاستكانة فلا
ينبغي ان تكون لغة القرمان متحركة حية واهلها
جامدون ساكنون .

ولقد اقرب من الحياة في اللغة العربية العالم
النسوري أبو الفتوح مثمان بن جنى فوضع القول من
الكلام واللول وأنهما يدلان على الحركة والسرعة
واللمسة .

وذكر ان معنى « ق ول » ابن وجدت وكيف
وتنتمي من تقدم بعض حروفيها على بعض وتاخره عنه
انما هو للخفوف والحركة وجهات تراكيبيها است
مستحملة كلها لم يحمل شيء منها وهي :

ق ول ، ق ل و ، و ق ل ، ول ق ،
ل ق و ، ل و ق .

الأصل الاول : « ق ول » وهو القول وذلك
ان الفم والسان يغفان له ويقلنان ويملايان به وهو
بسند السكوت الذي هو دائمة إلى السكون الا ترى
ان الابداء لما كان واحداً في القول لم يكن الحرف
المبدوه به الا متحركاً ولما كان الانتهاء واحداً في
السكوت لم يكن العرف الوقوف عليه الا ساكناً .

السادس : « ل ق و » منه اللفوة للمقاب ،
نيل لها ذلك لخفتها وسرعة طيرانها قال :

كاني بفتحاء الجناحين لقوسة
دفوف من المقبان طاطات شمال
ومنه اللفوة في الوجه والتقاوهما : ان الوجه
اضطرب شكله فكانه خفة فيه وطيش منه وليس له
مسكة الصميم ووفور المستقيم ومنه قوله :
وكانت لفوة لاقت قبسا

واللقوة النافقة السريعة اللثاح وذلك انها
أسرعت الى ماه الفحل فقبلته ولم تنب عنه نبو
العاشر .

واما « ك ل م » فهذه ايضا حالها وذلك انها
حيث تقلبت نعمتها الدلالة على القسوة والشدة
والستعمل منها اصول خمسة وهي : ك ل م ،
ك م ل ، ل ك م ، م ك ل ، م ل ك واعملت
منه ل م ك فلم تأت في ثبت .

فنحن ذلك الامثل الاول « ك ل م » منه الكلم
للجرح وذلك للشدة التي فيه وقالوا في قوله تعالى:
« دابة من الارض تكلمهم » فولين احدهما من الكلام
والآخر من الكلام (بضم الكاف) اي تجرحهم وتتكلمهم
وقالوا : الكلام (بضم الكاف) ما فلذ من الارض وذلك
لشده وقوته ، وقالوا رجل كلب اي مجروح وجريح
قال :

عليها الشبيخ كالاسد الكليم

الثاني : « ك م ل » من ذلك كمل الشيء وكمل
 فهو كامل وكامل عليه بقية التصرف والتقاوهما :
ان الشيء اذا تم وكمل كان حيئلا اقوى وأشد منه
اذا كان ناقصا غير كامل .

الثالث : « ل ك م » : منه الكلم اذا وجات
الرجل ونحوه ولا شك في شدة ما هذه سببه
الشدة الاصمعي :

كان صوت جرمها تساجل
هاتيك هاتا حتى (2) تقابل
لدم العجي تلکمها الجنادل

الاصل الثاني : « ق ل و » منه اللفو حمار
الوحش وذلك لخفتها وسراعه قال المجاج :

تواضع التقريب قلوا ملجمـا

ومنه قوله : قلوت البسر والسوق فهما
مقلوان وذلك ان الشيء اذا قلي جف وخف وكان
اسرع الى الحركة والطف قال :

قد مجيت مني ومن يعيـا
لـا راتني خلقـا مقلوليـا

اي خفيـا لـلكبر طائـسا

قال :

وسرب كعبـن الرمل موج الى المصـا
بواسف بالعـادي حـور المدامـع
سمـن فـناء بعد ما نـمن نـومة
من اللـيل فـاقـلـون فـسوق المـفـاجـع
اي خـفـن لـلـذكره فـزال عنـهن نـومـن وـاستـقاـون
علـى الـأـرض .

الاصل الثالث : « و ق ل » منه الوقـل للـوعـل ،
وذلك لـحرـكتـه وـقاـلـوا : توـقلـن فـيـ الجـبلـ اذا صـعدـ بهـ
وـذلك لا يـكون الا معـ الحـرـكةـ وـالـامـتمـالـ .

قال ابن مـقـبـلـ :

عودـا اـحـمـ القرـا اـزمـولةـ وـقـلاـ
يـانـيـ تـرـاثـ اـبـيهـ يـتبـعـ الـقـدـنـاـ
الـراـبعـ : « وـ لـ قـ » قـالـواـ وـلـقـ بـلـقـ اذا اـسـرعـ
قالـ :

جادـتـ بـهـ هـنـسـ مـنـ الشـامـ تـلـقـ
ايـ تـخـفـ وـتـسـرـعـ وـقـرـيـهـ « اـذـ تـلـقـونـهـ بـالـسـنـتـكـ »
ايـ تـخـفـونـ وـتـسـرـمـونـ .

الـخـامـسـ : « لـ وـ قـ » جاءـ فـيـ الـحـدـيـثـ لـأـكـلـ
مـنـ الطـعـامـ الاـ مـالـوقـ لـ .

ايـ مـاـ خـدـمـ وـاـعـمـلـ الـيدـ فـيـ تـحـريـكـهـ وـتـلـبـيـهـ
حتـىـ يـطـمـنـ وـلـضـامـ جـهـانـهـ وـمـنـهـ اللـوـقـةـ لـلـزـبـدـةـ وـذـلـكـ
لـخـفـتهاـ وـاسـرـاعـ حـرـكتـهاـ .

(2) حتىـ : ايـ مـسـتوـيـةـ

السابقين الامرة والقضاء وقد جاء في القراءان : « واتبناه الحكم صبياً » اي « اتبناه الحكمة » ومن الحكم بمعنى الحكمة استقوا « الحكيم » مثل استيقن الطبيب من الطب واللطيف من اللطف والنبيل من النبل وبسبب ازدحام المعاني على كلمة « الحكم » اختصت لفظة الحكيم بمعنى الحكمة وبقيت « الحاكم » تعني الامر او القاضي ولا تعنى الحكيم خلافاً للامر والامير والقاضي والفضل والجامل والجهول التي تشتراك كل واحدة منها في معنى صنوها .

وقد كثر استعمال صيغة « الحكمة » لمعنى الحصافة والقطنة لانها ابين من الفرض من لفظة « الحكم » المزدوجة المعنى ، التي كانت ما تزال تستعمل في كل المعنيين منذ ظهور الاسلام وهكذا زال معنى الحصافة من الحكم والحسب من العاكم بداع من الرهبة في اجتماع الناس فتختصر معناها في السلطان والقضاء كما زال معنى الامر من « الحكمة » و« الحكيم » فاختص معناها بالحصافة ولا كانت المحاكمة تتطلب مناقشة القضايا وتحميمها ، فقد صارت هذه الكلمة تعنى بالإضافة الى ما تقدم نفاد الفكر وسداد المنطق فقالوا : « للان قوي المحاكمة » اي ثابت البصيرة في تحريم المسائل المقلية دون ان يكون للامر هلاقة بالقضاء بين المحاكيمين من الناس .

وفي العهد الاسلامي اطلقـت « الحكمة » على الفلسفة وما هو يسيطرها من المقلانيات ثم اطلقت « الحكمة » على الطب وسمى الطبيب حكيمـا وظاهر ان سبب ذلك هو ان الكثريـن من « الحكام » - اي الفلاسفة زاولوا الطب على ذلك العهد مثل الكندـي والخـيـام وغيرـهما .

ولا يـاسـ ان نورد هنا مثلاً كان شائعاً في المـراقـ يوم كان الطـبـيبـ يـسمـيـ حـكـيـماـ هو قولهـ : « لا سـلطـ اللهـ عـلـيكـ حـاكـمـاـ وـلاـ حـكـيـماـ » وـلاـ زـالـ يستـعملـ في صـعيدـ مصرـ .

وهـكـذاـ تـعـدـتـ منـاحـيـ تـطـورـ هـذـهـ الـكلـمـةـ نـصـارـ لهاـ نـشـاطـهاـ الـخـلـاقـ فـيـ مـيـادـيـنـ السـيـاسـةـ وـالـادـارـةـ وـالـقـضـاءـ وـالـفـلـسـفـةـ وـالـطـبـ بـالـاـضـافـةـ إـلـىـ معـناـهاـ التـقـالـيـ الـعـامـ .

هـذـهـ هـيـ الـحـيـاةـ فـيـ الـلـفـاظـ الـعـرـبـيـ حـيـةـ جـمـعـتـهاـ اـكـثـرـ مـرـوـنـةـ مـنـ فـيـرـهاـ مـنـ الـلـفـاتـ فـانـتـ تـرـىـ انـهـ اـكـثـرـ

فالـحـكـمـةـ :ـ كـلـمـةـ تـقـالـيـةـ جـلـيـةـ وـهـيـ كـلـمـةـ عـصـامـيـةـ نـشـاتـ وـأـرـتـفـتـ مـنـ أـصـلـ مـتـوـاـضـعـ اـصـلـهـاـ مـنـ اـرـبـطـةـ الدـوـابـ ،ـ اـنـ الـحـكـمـ جـادـتـ مـنـ «ـ الـحـكـمــ »ـ وـلـانـ السـمـكـةــ وـهـيـ جـزـءـ مـنـ لـجـامـ الـفـرسـ :ـ الـجـزـءـ الـمـحـيـطـ بـالـحـنـكـ مـنـ الـلـجـامـ قـالـواـ مـنـ اـرـبـطـ الـقـدـمـونـ «ـ حـكـمـتـ الـفـرسـ وـاحـكـمـتـهــ »ـ مـنـ بـابـ ضـرـبـهـ وـادـبـهـ بـعـنـيـ وـضـعـتـ الـحـكـمـةـ فـيـ نـمـهـ ،ـ وـوـضـعـكـ الـحـكـمـةـ فـيـ فـمـ الـفـرسـ يـعـنـيـ سـيـطـرـتـكـ عـلـيـهـ ،ـ وـمـنـ هـنـاـ سـارـ «ـ الـاحـكـامــ »ـ وـزـانـ الـاحـسـانـ يـعـنـيـ التـوـيـقـ وـالـاتـقـانـ ،ـ وـسـارـ «ـ الـحـكـمــ »ـ وـزـانـ الـلـطـفـ يـعـنـيـ السـيـطـرـةـ ،ـ وـ«ـ الـحاـكـمــ »ـ يـعـنـيـ الـسـيـطـرـ وـالـاـمـرـ وـالـسـلـطـانـ ،ـ ثـمـ اـشـقـ مـنـ هـذـهـ الـمـادـةـ «ـ الـتـحـكـمــ »ـ وـهـوـ تـكـلـفـ الـحـكـمـ اوـ التـعـسـفـ فـيـ وـبـعـدـ اـنـ بـيـتـ هـذـاـ الـمـعـنـىـ لـلـحـاـكـمـ اـشـقـوـاـ مـنـ «ـ الـمـحاـكـمـةــ »ـ قـالـواـ :ـ «ـ حـاـكـمـتـ الرـجـلــ »ـ بـعـنـيـ خـاصـتـهـ اـلـىـ الـحـاـكـمـ ،ـ وـ«ـ الـحـاـكـمـ الرـجـلــ »ـ اـلـيـهـ بـعـنـيـ تـخـاصـمـاـ اـلـيـهـ «ـ حـكـمـ بـيـنـهـاـ »ـ اـسـدـ حـكـمـهـ فـيـهـاـ ،ـ وـمـنـ هـنـاـ سـارـ «ـ الـحـكـمــ »ـ يـعـنـيـ الـقـضـاءـ اـيـ خـاصـتـهـ اـلـيـنـ «ـ الـمـتـحـاـكـمـيـنــ »ـ اـيـهـاـ وـمـنـ هـنـاـ اـشـقـتـ الـفـصلـ بـيـنـ «ـ الـمـتـحـاـكـمـيـنــ »ـ اـيـهـاـ وـمـنـ هـنـاـ خـاصـتـهـ اـلـىـ الـحـاـكـمـ اوـ الـتـحـكـمـ ،ـ وـسـارـ الـحـاـكـمـ يـعـنـيـ دـارـ «ـ الـحـكـمــ »ـ وـهـيـ دـارـ «ـ الـحـكـمــ »ـ اوـ دـارـ «ـ الـمـحاـكـمـةــ »ـ دـارـ «ـ الـحـكـمــ »ـ اوـ الـاحـكـامـ ،ـ وـسـارـ الـحـاـكـمـ يـعـنـيـ القـضـاءـ اـصـبـعـ مـنـ السـهـلـ اـشـقـاقـ «ـ الـحـكـمــ »ـ - وـزـانـ الـقـلمـ وـالـتـحـكـمـ مـنـهـاـ ،ـ كـلـكـ اـصـبـعـ لـتـحـكـمـ نـفـسـ الـمـعـنـيـنـ اـيـ التـسـليـطـ وـطـلـبـ الرـأـيـ قـالـواـ مـثـلاـ :ـ حـكـمـ الـرـجـلـ مـاـفـتـهـ اوـ مـقـلـهـ فـيـ الـمـسـالـةـ بـعـنـيـ سـلـطـ مـاـفـتـهـ عـلـيـهـ اوـ مـرـضـهـ عـلـيـهـ اوـ مـقـلـهـ لـلـوـسـولـ اـلـىـ رـأـيـ فـيـهـاـ ،ـ وـقـالـواـ :ـ حـكـمـنـاهـ فـيـ الـخـلـافـ بـعـنـيـ طـلـبـنـاـ حـكـمـهـ فـيـهـ اوـ جـمـلـنـاهـ حـكـمـهـ فـيـهـ وـاستـعـمـلـ عـربـ الـجـاهـلـيـةـ (ـ الـحـكـمـةـ)ـ يـعـنـيـ طـلـبـنـاـ حـكـمـهـ فـيـهـ اوـ جـمـلـنـاهـ حـكـمـهـ فـيـهـ وـاستـعـمـلـ عـربـ الـجـاهـلـيـةـ (ـ الـحـكـمـةـ)ـ بـعـنـيـ «ـ حـكـمـ الـحـكـمــ »ـ قـالـ شـاعـرـهـ :

ما انت بالـحـكـمـ التـرـضـيـ حـكـمـتـهـ
ولـكـنـنـاـ لـاـ نـسـتـعـمـلـ «ـ الـحـكـمـةــ »ـ الـاـ لـاـ بـعـنـيـاـ
الـسـيـاسـيـ الـمـرـوـفـ .

ولـاـ كـانـ النـاسـ اـنـمـاـ «ـ يـعـتـكـمـونـ »ـ الـذـيـ مـقـلـ
وـقـطـنـةـ لـقـدـ اـسـطـيـغـ «ـ الـحـكـمــ »ـ وـزـانـ الشـكـرـ -ـ بـهـاـيـنـ
الـخـصـلـتـيـنـ ،ـ اـيـ المـقـلـ وـالـقـطـنـةـ بـالـاـضـافـةـ إـلـىـ مـعـنـيـهـ

فالعربية بعيونها المذهبة لم تتعذر ولم تضيق بكل ما ادركه الانسان من علم وتفقه من سنامه ، والعربية لغة القرeman الكريم ، القرeman الذى حفظها رغم ما مر بها من عصور الركود والجمود وما فشلت فى ظل القرeman تفيف بالقوة والانطلاق .

(للحديث بقية)

اللافات قبولا للاشتغال ، وجلی ان طریقة العربیة فى تولید الالفاظ بعضها من بعض جعلت من اللغة جسما حيا تحوالد اجزاءه ، ويتصل بعضها ببعض بأوامر قوية واضحة وهذا الارتباط بين الفاظ العربية الذى يقوم على ثبات عناصر اصيلة خصبة عظيمة تسمح لنا بالقول بأن ارباطها حبوي وان طریقتها تولیدية .

المراجع

- (1) الخصالص لابن جنى طبعة النجالة بمصر سنة 1913 م .
- (2) الكامل للمبرد . القاهرة سنة 1956 .
- (3) الطراز لليماني الجزء الاول .
- (4) عيون الاخبار لابن قتيبة - القاهرة .
- (5) ادبيات اللغة العربية طبعة 1909 .
- (6) الفلسفة الفتوية . جورجي زيدان .
- (7) مقدمة ابن خلدون طبع كتاب التحرير سنة 1966 القاهرة .
- (8) فلسفة اللغة العربية للدكتور هشمان أمين .
- (9) تاريخ آداب اللغة العربية جورجي زيدان الجزء الاول .
- (10) احياء النحو ابراهيم مصطفى 1926 م القاهرة .
- (11) الزهر للسيوطى طبعة دار احياء الكتب العربية .
- (12) فقه اللغة للشمالبي المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة .
- (13) فقه اللغة لمحمد المبارك . دمشق 1960 م
- (14) مجلة الاقلام المجلد الاول . العراق .
- (15) مجلة اللسان العربي . الرباط المغرب . « جميع الامداد الاربعة الاولى » .

فَلَكَانَتِ الْعَرَبِيَّةُ لِغَةُ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ؟

الأستاذ عاصي المفليبي ، مجمع لجؤت الإسلامية "القاهرة"

صفحات مدة من هذا السفر المظيم (١) ، نوجز تلخيصه وتحديد موضوعاته فيما ياتي :

١ - تحدث عن الشخصيات الظاهرة التي نزلت مكة وقت كان ليس بها أحد ولا ماء ، وهم : الخليل إبراهيم ، وهاجر وبنتها الرضيع اسماعيل سلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

٢ - نبع زرم لمهاجر ولدتها .

٣ - قدموا بطن مريم جرهمي واستئذانه هاجر في السماح له بالإقامة في مكة راضيين شرطها « الا حق لهم في الماء » ، وأستقدموا اهلا لهم ، وقد شب اسماعيل عليه السلام بينهم ، وتزوج منهم مريمين .

٤ - زيارات ثلاث للخليل إلى مكة لوديعته - مدا الأولى التي قدم فيها باهله إليها ، وكان باخرها تلك الزوررة التي بني فيها البيت مع ولده - عليهما الصلاة والسلام - وأمر فاذن في الناس بالحج .

وهذا الحديث الشريف يعطي حقائق موضوعية هامة توضح بعض ما غاب عن التاريخ في منهجه الحديث :

أولها : بيانه الواضح من مبدأ تاريخ العمران في مكة ، والذين يعنون بتجزيل المصر التاريخي للأمم القديمة ليسوا أمامهم وليقنة أدق من هذا الحديث لبيان بهذه العمران بمكة وارتباخ الناس فيها وسكناتهم بها ، فإذا كان الخليل - سلوات الله عليه - قد هاش

لنة خليل الرحمن إبراهيم - ملبه الصلاة والسلام - شغلت الباحثين من علماء الأدباء في المصر الحديث ، وبخاصة بعض الذين يهمهم أن ينحرقوا ببحوثهم في الجاه معين مسبوق بتحطيمه ينسليخ بسيبه العرب من صلتهم بالخليل ، على نبنا وملبه انفل الصلاة والسلام .

وإذكر أن الاستاذ مباس محمود العقاد - رحمه الله - قد وضع كتابه : « أبو الانبياء : الخليل إبراهيم » و « الثقات العربية أسبق من ثقات اليونان والعربين » وتصدى فيما لهذه القضية واستطاع أن يرد إلى نصر النحرفين سهامهم . وتابع - رحمة الله عليه - منهج « تقصي العقائق » في بحثه الذي استمل مدة مناهج تلقت تالجها في النهاية منذ حقالق مشيرة ثبت صلة إبراهيم الخليل الوبيقة بالعروبة في وقت مبكر يقع بين القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد .

ونحن نقتصر هنا - مستعينين بالله - على منهج « الحديث النبوى الصحيح » في الكشف عن لغة خليل الرحمن ، فنان السنة المطهرة قد استقام بها كثير من حقائق التاريخ والكون حين تعرض لها رسولنا الكريم المصطفى صلى الله عليه وسلم .

وقد ساق الإمام البخاري رضي الله عنه في صحبيه حدثا ، رواه بسنده من ابن مباس رضي الله عنهما ، أبان عن أمر الخليل بمكة وأماكنه فيه حتى ليكاد يكون الحديث الوحيد الذي استوفى

(١) صحيح البخاري ١٧٢/٤ مطابع الشعب بالقاهرة ١٣٧٨ هـ

خليل الرحمن عليه وعلى نبينا افضل الصلاة والسلام ؟ وكلناهما كانتا بعد زواج اسماعيل صلى الله عليه وسلم . واسماعيل تزوج مرتين من قبيلة جرم العربية ، قال :

« فجاء ابراهيم بعد ما تزوج اسماعيل يطالع بركته ، فلم يجد اسماعيل ، فسأل امرأته عنه ، فقالت : خرج بيتنى لنا ، ثم سالها عن عيشهم وهيئتهم عليه ، قال : فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ، وقولي له : يغير عتبة بابه ، فلما جاء اسماعيل كانه آنس شيئاً ، فقال : هل جاءكم من احد ؟ قالت : نعم ، جاءنا شيخ كلها وكذا فسألتها عنك ، فأخبرته ، وسائلني : كيف ميشنا ؟ فأخبرته : أنا في جمد وشدة ، قال : فعل أوصاك بشيء ؟ قالت : نعم ، أمرني أن أقرأ عليك السلام ، ويقول : غير عتبة يابك ، قال : ذاك أبي ، وقد أمرني أن أفارقك .. حتى باهلك ، فطلقتها »

هذه كانت الزيارة الثانية ، ويمكن ان يضع لها القاريء تقدير الوقت الذي استغرقه ، وهذه هي الثالثة .. قال :

وتزوج منها (يعني من جرم) تزوج منها اولاً اخري ، ثلثت هنتم ابراهيم ما شاء الله ، ثم اتاهم بعد ، فلم يجده ، فدخل على امرأته فسألها عنه ، فقالت : خرج بيتنى لنا ، قال : كيف انتم ؟ وسألها عن ميشهم وهيئتهم ، فقالت : نحن يخبرن وسعة ، واثنت على الله ، فقال : ما طعامكم ؟ قالت : اللحم ، قال : فما شرابكم ؟ قالت الماء ، قال : اللهم باورك لهم في اللحم والماء

قال النبي صلى الله عليه وسلم : ولم يكن لهم يومئذ حب ، ولو كان لهم دعا لهم فيه ، قال : فهم لا يخلو عليةما احد بغير مكة الا لم يوافقه ، قال : فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومربيه يثبت عتبة يابه ، ثلثا جاء اسماعيل قال : هل الاك من احد ؟ قالت : نعم ، اثنان شيخ حسن البيضة ، واثنت عليه ، فسائلني هناك فأخبرته ، فسألني : كيف ميشنا ؟ فأخبرته أنا بغير ، قال : فأوصاك بشيء ؟ قالت : نعم هو يقرأ عليك السلام ، ويأمرك ان تثبت عتبة يابك ، قال : ذاك أبي وانت العتبة ، أمرني أن امسلك ..

ونعيد لفت نظر القاريء الى النظر في قدر هذه الزيارة الزمني . ثم نلاحظ ان الخليل في كلتسى

بين القرنين السالفين من قبل الميلاد ، كان ذلك يعني ان هذه الفترة مبدأ دخول مكة مصراها التاريخي .

ثانيها : يوضع هذا الحديث الشريف في جلاء نادر « حلقة مفقودة » لدى المؤرخين الذين توصلوا الى ممالك الاسماعيليين في شمال الجزيرة مثل : تيماء ، ودومة الجندي وغيرها ، دون ان يصلوا - عن طريق منهجم - الى « مهاد » هذه الرؤوس الشريفة من ابناء اسماعيل ، اعني الصدر الاول من ابنائه لا احفاده ومن بعدهم ، فقد ظلت هذه المهد حلقة مفقودة الا في هذا الحديث ، فهو وحده الذي يقدمها غير ضوء شديد ينير من حولها كل السبل ويقطع بان الاسماعيليين صعدوا من الجنوب (مكة) فامتلکوا في الشمال (اعالي الجزيرة) وليس العكس.

ثالثها : لغة خليل الرحمن - على نبينا وعليه افضل الصلاة والسلام ، وهنا يعني ان تتحدث عنها وحدها دون ان تتعرض للغة اسماعيل عليه الصلاة والسلام ، وذلك لأمر واحد ، هو ان اسماعيل نشأ رضيعاً في قبيلة جرم وتلقى العربية منهم ، وفي هذا الحديث الشريف جاء عنه .. « وشب الغلام وتعلم العربية منهم وانفسهم واعجمهم » لذلك تزيد ان تتحدث عن لغة خليل الرحمن وحده ، وهو الذي لم يقطن مكة ولم يجاور جرم الاصوات في الزيارة الثانية والثالثة ، ومدة بناء البيت في الرابعة . امس الاولى فلم يكن بمكة يومئذ احد وربما لم يمكث فيها ساعة من نهار ، وها هو الجزء من الحديث الخاص بها ، قال ابن عباس رضي الله عنهما من « هاجر » - عليهما السلام : ثم جاء بها ابراهيم وبابها اسماعيل - وهي ترضعه - حتى وضعتها عند البيت عند دوحة نوق زرم في اهل المسجد ، وليس بمكة يومئذ احد ، وليس بها ماء ، فوضعتها هناك ، ووضع متدهما جرايا فيه تمر ، وستقاء فيه ماء ، ثم قفى ابراهيم ! اين تذهب ثبنته ام اسماعيل ، فقالت : يا ابراهيم ! اين تذهب وتركتنا بهذا الوادي الذي ليس فيه انس ولا شيء ؟ فقالت له ذلك مراراً ، وجعل لا يلتفت اليها ، فقالت له : والله الذي امرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : اذا لا يضيعنا . ثم رجمت .

ولا يمكن ان يقال : ان ابراهيم مكث شيئاً بالمكان ، انه ما ان وضعتها حتى اطلق راجماً ، وبالتالي ما كان فيها من احد غير اهله .

ولما كانت الزياراتان الثانية والثالثة كلامها اهمية في الموضوع نسوقهما لنعرف منها : ما لغة

وحتى يتم لقاء «علمي» بين الحديث الشريف و «التاريخ» في منهجه الحديث ينبغي النظر في المجرات العديدة التي تمت في المعرق التاريخي لجنوب الجزيرة ، اهني منذ اربعة الاف سنة من قبل الميلاد ، فقد توالى هجرات منه الى الشمال في خطين . وامتلكت بعض هذه القبائل الشمال ودان لها ، وفي منتصف هذه الالاف الاربعة ظهر الخليط عليه السلام كعربي اصيل ، لانه منها ، ولأنه يستحبيل ايضاً ان يدعو الى دين الله في قلب الجزيرة ، ويؤذن للناس بالحج - وفي مقدمتهم جرهم القاطنة حول البيت - بلسان غير عربي ، قال تعالى: «وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم (ابراهيم ٤) والحج شريعة الخليط عليه السلام .

ولستا نقول : انه عليه السلام تحدث بالعربية التي هي هريتنا - اهني لغة القرءان الكريم التي بها انزل - لكنها هربية زمانه بفصاحتها ، وما من شك انها كانت وثيقة الصلة : اصولاً وفروماً بعربة القرءان الكريم .

ولقد اوحى الى رسولنا المصطفى صلى الله عليه وسلم ببعض دعائه في تمويده كان يسوز بها ولديه : اسماعيل واسحاق عليهما الصلاة والسلام ، فنوزد بها المصطفى - صلى الله عليه وسلم ولديه : الحسن والحسين ، فقال : اميلاً كما بكلمات الله الناتمة ، من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة »

قد لا تكون مين اللفاظ ، لكنها هربية ، وليس الفرق بينهما الا ان الاولى هربية الخليط عليه الصلاة والسلام ، والاخيره هربية المصطفى خاتم الرسلين صلى الله عليه وسلم .

الزياراتين اعقبهما بالرحيل فتم يمكث بمكة مقدار شهر او اكثر حتى يقول : انه اخذ اللسان العربي ابان اقامته .

وإذا كان من الحقائق المأمة التي يقدمها هذا الحديث الشريف ان زوجتي اسماعيل : الاولى والثانية من جرهم - الذين على ذلك حيث يقول من الاولى : « فلما ادرك زوجوه امرأة منهم » ومن الثانية « وتزوج منهم اخرى » . - فهذا يعني ان كل الكنتين هربستان خالستان ، ومن الصفت ان يدمي مدع انهم تعلمتا لغة اخرى في العربية .

كذلك ثبت لنا ان خليل الرحمن - على نسبها وعليه افضل الصلاة والسلام - لم يمكث بمكة فدرا يعلمها العربية ، وكان يخاطب كنطيه ، وقد انفرد بكل منهما - دون ثالث يمكن ادعاة انه ترجم بين لسانيهما .

وهذا امر يعني - دون تردد - ان الخليط - صلوات الله وسلامه عليه - كان ذا لسان هربي مبين فيما كانت «المخاطبة» بينهما - في كل مرة - كلمة عابرة تزددها اشارة ، ولكنها حوار دار بين اخذ ورد اثنين بحكمه على كل منهما ، فواحدة كانت شلوم بيت زوجها والاخري كانت حسنة وخبره

وإذا كان الخليط - عليه السلام - ذا لسان هربي ولم يكن من اهل مكة ، ولا كان من اهل الجنوب (اليمن وما حولها) وكان من الشمال ، فهذا يعني ان العربية كانت مسيطرة - كلغة حياة ومعاش - في هذا الشمال الذي كان فيه الخليط وهنا تلتقي بالاستاذ العقاد - رحمة الله عليه - الذي يعطي بحثه توزد العربية القديمة في شمال الجزيرة حتى تخطت العراق وما كان الى غربه وشماله .

الحياة في اللغة العربية

أرباب لغة

الأستاذ إلياس قنصل ، لأرمنية

شكلية خلقتها اضافة زوائد على الكلمة او تغيير آخرها .

وهذا التحوير يكبر الكلمة في « العين » نقط .
وما هكذا اللغة العربية .
ان اللغة العربية حين تود ان تضع الكلمة في
قالب المبالغة تعمد الى « الحياة البشرية » معتبرة
منها ما يبيث في الكلمة روح هذه الحياة .
واترك الموضوع تليلا على ان اهود اليه بعد
سطور .

ان الرجل الذي يتم بميزات الرجل لا يستطيع
ان ينال من تحديتك اليه ما ينال الرجل الذي شامت
الطبيعة ان تضع فيه بعض ميزات المرأة .

انك تمر بالرجل « العادي » فلما تحفل به .
ولتكن اذا مررت برجل تدبرز نهاده — مثلا —
 فلا يسعك الا التفكير به تليلا او كثيرا لان بروز النعدين
من خصائص المرأة لا من خصائص الرجل .

وما تقوله عن الرجل تقوله عن المرأة .
ولا نعبأ بشعورك ازاء هذا التجاوز او ذلك على
الحدود المرسومة لاحد الجنسين : ما تشير اليه هو ان
هذا التجاوز يلتفت نظرك .
وقد ادركك اللغة العربية هذه الظاهرة فطبقتها
على صيغة المبالغة .

- 1 -

تحتفل اللغة العربية عن غيرها من اللغات بأن
« الحياة » التي فيها حياة خلقة مبدعة ذات عصرية
خامسة . وفي الوقت الذي نجد بقية اللغات ادوات
للتعبير متى بلغتها تقد بلغت غايتها القصوى وانتهت
بهمتها نجد ان الفساد لا تكتفي بهذه الغاية بل هي ت يريد
ان يكون التعبير جميلا وتريد ان يمتد مدتها الى اكثر
من ذلك ليتحول الى نكارة مستمرة للجمال والذوق
والذكاء ، نكرة تندفع بصورة تلقائية وتتولد من نفسها
كالطائفة الذرية سواء بسواء .

ولو احبينا ان نضع للامر مثلا بسيطا يقربه الى
الادهان لاستطعنا القول ان بقية اللغات كالساميات
العادية تضيق لك الوقت اقرب ما يكون الى الدقة ،
اما اللغة العربية فكالساعة الذهبية التي لا يمكن الا
ان تكون مثال الدقة في ضبط الوقت لأن معدنها يحمل
ساندها على مراعاة تفاصيلها وتوفير الانسجام بين آلاتها
الداخلية وغلانها الشمرين — دفعه واحدة — آلة
لمعرفة الوقت بالدقة المتناهية واداة للزينة تلخص
الانتظار ورميد مادي يحتفظ بتفاصيله الابراهية .

ويأتيك البرهان في صيغة من صيغها الجديدة :
« المبالغة » في ابسط صورها هي تضخيم الشيء
بحيث يتوجه اليه الانتباه وقد حللت اللغات الاخرى هذه
المشكلة — اذا جاز لنا ان نسميتها مشكلة — بطريقة

وليذرنا الجسان - اللطيف والخشن - مما
اردنا الا تزبيب العصبة الى الاذهان .

ان لفتنا تمثاز كما اشرنا بهذه الفعفة من الحياة
التي تعل من تراكيبيها وصيغها ومشتقاتها ومن كلماتها
ايضا . وهذا سر من اسرار عظمتها وعبورتها .

لقد حاربها الطغاة في مختلف مهددهم وحاولوا
ان يتضروا عليها .

ثم .. ذهب الطغاة وظلت لغة الفساد تزود
القومية العربية بالقوة والجمال والخلود .

- 2 -

الحياة في اللغة العربية حياة خلقة بيدعة ذات
عيقورية خاصة - كما اشرنا سابقا - وهي لا تكتفى
بسمايرة التطورات المستحدثة - كما تفعل بقية اللغات
- بل يجد الباحث فيها « حركة بشرية » في تفاعلها .
نكانها كائن هي يذهب ويحيي وتتجدد فيه المواتائف
والاحساس .

ومن ابرز الميزات في اللغة العربية ان كلماتها تتعم
بهذه الحياة وبهذه الحركة التي تصف في الوقت الذي
نجد الكلمات فيسائر اللغات ادوات جامدة لا يدب
فيها شيء من الحياة الا بعد ان تجتمع طائفة منها الى
بعضها وتلتف عبارا .

كانت نتنة من المبحرين في علم اللغة ان الكلمات
العربية ذات اصول ثابتة تتربع منها المعاني المتقاربة
- مثلا النون والباء اذا اجتمعتا كانتا الجذر في مختلف
معاني البروز والنبو - فما نظر الى مراعي هذا الجذر :

نبت = برب من الارض .
نبط = اخرج ماء البشر
نبع = خرج من العين
نبغ = خرج وظهر
نبق = خرج وظهر
نبك = ارتفع

الى آخر ما هنالك من الكلمات التي تتشابه في
الاصل .

هذا ما كتبه فريق من العلماء وقد ادخلوا كثيرا
من الاصول ادلة واسحة صريحة .

ماذا شامت ان تصف رجلا كثير الرحلات قالت
منه انه « رحالة » .

انها تقدمه لك وقد لحقت به الناه التي كان من
حتها ان تلحق بالكلمة المؤئنة . فملأ ذلك لتلت نظرك
الى صلة المبالغة فيها .

واما وصفت لك رجلا واسع العلم قالت منه انه
علامة .

وهكذا .

ان اللغة العربية في عبقريتها لا تكتفى بالطريقة
الشكالية باضافة الناه الى الكلمة بل تعمد كذلك الى
المعنى فتغير صفة وتملا « عينيك وظاهرك » في نفس
الوقت .

ان خصائص التأنيث في الكلمة هي الوجه الآخر
الذي يضع امام « النكر » صورة مادلة من المبالغة في
حين ان اضافة الغرف - الناه - وتشديد معن الكلمة
هي الوجه الاول الذي يضع امام « العين » الصورة
المطلوبة .

وانت تنتقل بالبالغة من « العين » الى « النكر »
ليتم التصور من التحوير لشططع ان تم اوسع الامر
بالبالغة المتواخة من التغيير .

وما ينطبق على الكلمات المذكورة ينطبق على
الكلمات المؤئنة ولكن بوسيلة مكيبة .

ان صيغة المبالغة في الاولى هي الحق علامة
التأنيث بها .

من الطبيعي والمنطقي ان تكون المبالغة في
الكلمات المؤئنة حذف علامات التأنيث منها .

واما بالمرأة التي تصور نفسها امراة « مصون »
- لا امراة مصونة - . واما الحرب التي لا تبقى ولا
تلتحم الحرب الفروس - لا الحرب الفروسة - .

ان هذا التغيير او هذا القلب يجعل عينيك
تلتحن الى ما اريد من المبالغة ، ويجعل هلقلك يمثل
بالصورة التي وضعت لها .

ان ناه علامة ورحالة وما اليهما هي بروز التهدين
في الرجل .

وان هذه ناه تاء التأنيث من مصونة ومضروبة وما
اليهما هي اللحية في ذقن المرأة .